سباعي عثمان

الصّمْت.. والجُدران

(مجمُوعَة قصص قصيرَة)

منشورات العصر الحديث

الغلاف بريشة : يوسف التهامي .

الرسوم الداخلية للفنان طلعت كركدن

رسمت.. والجدران

الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م



المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

إهْـــدَاء

إلى كل الخطى المتعبة في رحلة الحياة .. إلى السهارى في ليالي الشتاء الطويلة ... إلى كل المودعين والمسافرين على أرصفة الموانئ في انتظار لحظة مفعمة بالحرارة .. حرارة اللقاء ، وحرارة الوداع ! !

.. إلى (نفسي) المفعمة بحب الناس .. كل الناس .. أهدي بعض عالمها المليء بالتناقضات .. المليء بالحب ، والمرارة ، وقليل من الراحة في بعض مقاطعها .. انه عمل صغير لتفاعل كبير ظل يمور في النفس في انتظار لحظة احتواء يسع حجمه ، وما أحسبه بلغ هذه الغاية ، ولكن فيه بعض الراحة . ! !

سباعي عثمان



الصّمت والجدران



الصّمت والجدران

ألقى بفراشه في ركن الغرفة ، وجلس يتأمل المكان : « التهوية هنا ليست جيدة .. لا شيء غير الصمت ، والجدران والقلق ، ولمبة مشنوقة على السقف لا تصلح للقراءة وثمة شخص ينام في الركن المقابل ، وهذا رائع .. » احس بشيء من الراحة .. تطلع برهة إلى السقف في امتعاض .. رائحة الدم لا تزال تخنق انفاسه .. « ولكن اين أنا الآن .. ما الذي يحدث هنا بحق السماء ؟ ! .. انكم تصمتون كهذه الجدران .. لماذا ؟ ! »

ذرع وجه رفيقه النائم برهة ، ثم اطرق : « الصمت وحده هو الذي يتكلم هنا ، وحين يتكلم الصمت يسكت الكلام .. لماذا ؟ ! الجثة كانت تتدحرج هناك .. الدماء كانت تندفع من أنف المصاب كعيون البترول .. مسكين هو سقط مثل محارب قديم في معركة غير متكافئة ولكن ما الذي كان بوسعي أن أفعل . – وقتئذ – من أجله ؟ ! وقفت اتطلع إليه بلا حراك .. مرت لحظات كئيبة .. لا اذكر ما الذي حدث خلالها .. بعدها كنت انتصب في بلاهة امام الضابط المنهك من السهر .. عيناي كانتا قد توقفتا عن الحركة .. تكلمت بصعوبة بالغة :

– سيدي الضابط .. لقد وقعت جريمة قتل في الشارع العام ؟!

اعتدل الضابط في اهتمام شديد ، وهو يقول :

– ماذا .. هل قلت جريمة قتل ؟

– نعم يا سيدي .. وأنا القاتل ، وان شئت المقتول ، والقتيل ينتظر في الخارج ! !

تخلص من العبارة الأخيرة بسرعة ، وراح يذرع الممر جيئة وذهاباً .. كانت مهمة بالغة الصعوبة .. بعدها .. مشى بخطوات ثقيلة كأنه ينتزعها من الأرض .. لم يقل شيئاً مطلقاً .. ذهنه كان فارغاً تماماً .. عيناه كانتا تدوران في فراغ رهيب .. لم يستطع أن يركز ذهنه في شيء مطلقاً طوال الطريق ، أو لعله لم يفكر في ذلك أصلاً .. وأمام المبنى الكبير وقف لحظة – كمن يتزود بنظرة أخيرة من الحرية في الخارج – وقف يتأمل فيما حوله .. استبطأه الجندي الذي يرافقه ، فالتفت إليه معتذراً ليستأنف السير من جديد .. وفي منعطف حاد من المبنى راح يصعد درجات منبسطة خلف الشرطي في أسى بالغ .. تباطأ على باب الغرفة المعزولة في الطابق الثاني قبل أن يدخل .. أشار إليه الجندي :

– تفضل ..

ابتلع ريقه بصعوبة بالغة :

– شكراً ..

استجاب في صوت حزين ، متهدج .. كانت لحظة مريرة

حقاً .. أحس بيأس مريع .. لم يكن يستطيع أن يحدد أي شيء .. الدنيا كلها كانت بالنسبة إليه – وقتئذ – شيئاً تافهاً : « تفضل » كلمة مهذبة حقاً ، ولو قيلت في غير هذا المكان أو في غير هذا الوضع لأحس لها طعماً آخر ونكهة أخرى .. ترى هل فقدت نكهتها .. أم هو الذي فقد تذوق هذه النكهة .. هذا جائز ؟!

من هنا بدأت رحلته مع الليل والصمت والجدران .. فكر ملياً وهو يتأمل محتويات الغرفة : « كانت انفاسه تتردد في صميمية لتؤكد وجوده .. ومع ذلك كان يتمدد ممشوقاً بلا اية مقاومة .. ولكن الموت تباطأ كأنما يساومه » كان الذهول يطويه بقسوة .. صداع حاد يكاد يحطم رأسه .. ضغط على صدغيه بقوة .. الطفاية التي أمامه تكلس في قعرها الرماد المتراكم .. رفيقه يشخر ملء رئتيه ويتمدد كارتخاء هذا الليل البليد .. صرصار يصرخ في مكان ما من الغرفة ويفنى تماماً في الصمت من حوله .. « تفي » .. نهض يتابع حركة الصرصار .. اللعنة عليه .. لا بد أن أسحقه .. فحص كل شق في الجدران .. أصغى بكل جوارحه ، ولكن بدون فائدة : « اخص » .. لقد أفلت القذر : « اخص » . الصرصار وحده هو الذي يملك القدرة على اشاعة وجوده بمثل هذا الفناء فيما حوله) .. الجندي الذي على الباب خلع جواربه في ضيق وحشا بها جيب بنطلونه .. القى بحذائه الضخم جانباً :

– **عم تبحث !؟**

قال الجندي ذلك ، وهو يفرك اصابع رجليه المجهدتين ..

أجاب هو :

– ألا تسمع هذا الصراخ ؟!

– لا تتعب نفسك ، فلن تجده ..

– كيف عرفت .. هل لديك فكرة عن الصراصير ؟!

– قلت لك لن تجده .. وهذا كل ما أعرفه ! !

– هل جربت ذلك ؟!

وفشلت .. وبعد ذلك عودت نفسي على اعتباره شيئاً مذاباً في السكون .. ! !

عاد وجلس في مكانه : « لا شيء أصبح واضحاً الآن ! ! » مرة اخرى ضغط على صدغيه بقوة .. النوم لا يأتي .. نهض وحمل الطفاية الممتلئة بأعقاب السجاير والقى بما فيها من النافذة .. خبطها خبطتين على حافة النافذة وأعادها إلى حيث كانت .. راقته الحركة ، فقد بددت بعض هذا الصمت الذي يسود الغرفة منذ اول الليل .. موتور يخفق في مكان ما .. اللعنة .. رفيقه تحرك في فراشه وانقلب على الحائط .. ترى اى طراز هومن الناس ؟ ! انه يشخر كالثور .. لا شيء يهم .. أحس برغبة ملحة في الصراخ .. وليكن ما يكون .. لا شيء سوى الصمت .. شعور ما بضرورة أن يصرخ كان يراوده منذ أول الليل بالحاح .. أحس بألم بالغ ، وهو يسترخي للمرة الرابعة .. طرد الفكرة من ذهنه .. الدخان يعتم الغرفة مثل ضباب مدينة ساحلية .. ازاح الوسائد وحملق في كوم من الكتب تحتها .. تناول احدها وفتحه بين يديه .. ظلت

عيناه مفتوحتين بلا حراك .. كانت الاحرف السوداء تتراقص امامهما في الفراغ الهائل .. صعد قرص القمر في محاذاة النافذة الشرقية : « كم هو أكذوبة كبيرة .. حبيبتي صفعتني حين قلت لها وجهك مثل القمر .. لقد فضح العلم كل شيء » .. ذرع صفحة الكتاب طولاً وعرضاً : اللعنة عليهم جميعاً .. ما الذي بوسعهم أن يفعلوا على سطح القمر .. إنه القلق الذي يفتت أركان هذا العالم .. القى بالكتاب جانباً : « كيف اقرأ في هذا الصمت المريع » واستدرك .. « بل كيف أقرأ في هذه الحركة الطاحنة » .. في الحقيقة كان يحس بأنه في حالة بين الحركة والسكون أو هو فيهما معاً .. المفاهيم تميع الآن في ذهنه بلا حدود ولا ضوابط .. تذكر رفيقه الذي ينام بالقرب منه .. إنه لا يزال يشخر كالثور ؟! إنه لا يعرف الآن من يشاركه هذه الغرفة .. وأحس بثقة كبيرة : « لقد آن لي أن أكسر جدار هذا الصمت » .. أيقظ زميله برفق : « حسناً .. إنني حتى الآن – أبدو مهذباً جداً » .. فتح الرجل عينيه ، وراح يتأمل المكان في هدوء .. سأل في صوت متهدج :

– **من أنت ؟!**

– **زميل جديد ..**

– **أهلاً وسهلاً ..**

– **شكراً ..**

كذلك اجاب بينما كان زميله يتمطى على فراشه في تثاؤب بليد .. سأل هو :

- كم الساعة الآن ؟!

- الوقت هنا لا معنى له !!

- أظننا في أول الليل ؟!

- وما الفرق .. ما الذي تود أن تفعله في آخره ، أو حتى في اليوم التالي .. الليل والنهار ، والصباح ، والمساء ، مواقيت لا معنى لها هنا .. انها تذوب في بعضها .. وستعرف هذا إن آجلاً أو عاجلاً !!

احس بيأس شديد وهو يتأمل رفيقه الذي صمت واعتدل في تمدده .. قال هو :

- ولكن لم تصمت هكذا كالموتى ؟!

- نعم .. هل قلت شيئاً ؟!

- أنظر إلى هذه الغرفة كم هي « وسخة » ؟!

- الدنيا كلها وسخة !!

قال وهو يبصق في الطفاية :

- إنك تتحدث بشكل مقزز !؟

ضحك هو في برود قائلاً :

- هذه لهجة لا تتناسب مع وضعنا ؟!

- كيف ؟!

- في بعض الأحيان يتعين على الإنسان أن يتكيف مع الظروف ويقدم بعض التنازلات ..

وصمت لحظة ثم تابع :

– على أي حال احمد الله على أنني لم أصفعك ! !

صاح هو في غضب :

– تصفع من أيها المعتوه ؟!

– اطمئن إنها مجرد فكرة طرأت لي .. وأقدم لك أسفي ..

– هل هذا من بعض التنازلات ؟!

– ربما .. ولكن ليس دائماً ! !

اغتاظ من لهجته الباردة .. ولكنه كان بحاجة إلى اية كلمة تبدد هذا الصمت .. اطرق هنيهة ثم سأل في اهتمام :

– ولكن قل لي ما هي مشكلتك ؟!

– أنت تعرف – اذن – أن هناك مشكلة .. لو قلت لي .. لماذا أنت هنا ، لقلت لك ، بسبب مشكلة وما دمت تعرف الجواب ، فلماذا تسألني ؟!

– أنا لا أعرف شيئاً .. إنه مجرد استنتاج فقط ؟!

نهض الرجل وجلس على فراشه ، وهو يقول :

– اسمع أيها السيد ..ماذا يفعل رجل يتمدد على فراش كهذا في غرفة محروسة بدون أن يجرؤ على التحرك خارجها .. مه .. !؟ أنت تعرف الجواب طبعاً ؟ ..

عاد والقى بكل جسده دفعة واحدة على فراشه .. تابع في انهزام يائس :

– الحرية دائماً رائعة أيها السيد .. إنها الشيء الوحيد الذي لا يباع ولا يشترى ! !

قال ذلك ثم ضحك في مرارة .. بدت الكلمة في ذهن زميله المندهش اكبر من حجمها الطبيعي .. كأنه يسمعها لأول مرة .. صمت هو برهة يفكر : « الحرية دائماً رائعة » .. قال لصاحبه :

– متى تتوقع الخروج من هنا ؟!

– لم أفكر في هذا الموضوع بعد .. هل فكرت أنت ؟!

– ألا ترى أن هذا النوع من التفكير بالنسبة لي سابق لأوانه ؟!

– هذا أفضل !!

– « هذا أفضل » .. ماذا يقول هذا المعتوه ؟! صاح :

– ماذا تعني ؟!

– هل لديك رأي آخر ؟!

– ما الذي ترمي إليه بالضبط ؟!

– اوه .. لا شيء .. ولكن في بعض الاحيان يعجز الانسان عن تكوين أي رأي .. هكذا أتصور ...

– قد لا أفكر الآن على هذا النحو .. ولكن بوسعي أن افهمك جيداً ..

– ها نحن قد التقينا أخيراً ، وبوسعك الآن أن تتمدد في فراشِك .. وانس كل شيء !!

قال ذلك ، والتفت إلى الجندي :

– كم الساعة الآن ؟!

– الثالثة بعد منتصف الليل ..

- الوقت هنا يتمدد أكثر منه في الخارج .. هل لديك فكرة عن هذا الموضوع ؟!

- أي موضوع تعني ؟!

- موضوع الوقت .. و ..

وقبل أن يكمل قاطعه زميله باهتمام .

- وماذا أيضاً .. ؟!

أطرق لحظة ثم أضاف :

- والقلق .. هل تعرفه ؟!

سأل وهو يحدق في السقف .. بدا السؤال مفاجئاً بالنسبة اليه .. سرح بعيداً قبل أن يجيب :

- ايه .. كنت أتصور أن لا أحد غيري يعرفه ! !

كان الفراغ يتمدد حوله بشكل مريع .. « القلق ؟! » هه .. كم صارعته .. وأخيراً صرعته باللامبالاة .. انها أفضل اسفنجة لامتصاص الأحاسيس العدائية ! !

هكذا قرر ببساطة وانقلب على الحائط .. اتسعت آفاق خياله فجأة .. الجثة المتمددة في الثلاجة مثل « مومياء » من الشمع في متحف قديم والدماء المراقة على الاسفلت ، والضابط المندهش والكلمات التي ألقاها بسرعة .. كان الضباب وقتها كثيفاً ، وكان الموت - كالمارد - يذرع المكان في مساومة رخيصة .. سرت في جسمه رعدة خفيفة : .. أوف .. الجو حار .. وبوسعه أن يحسب الوقت الآن .. ليس هذا عسيراً .. ولكن ثمة أشياء كثيرة ومتداخلة

بحيث لم يعد يسعها ذهنه .. الفروق بين الأشياء تذوب أحياناً ، وتتعسر عملية التفاضل ، ولكن المساحات والأحجام تظل هي ، هي .. البعد الرابع أصبح حقيقة . وذلك الـ « فرعون » الشمعي يسترخي الآن في تابوته المثلج .. فرعون ما قبل الميلاد غرق في مأساته حتى أذنيه وقدم مساومات رخيصة قبل أن يستسلم .. أما ذلك الإنسان المثلج مثل الفروج الدنمركي فلم يقدم أية تنازلات .. لقد بارح الساحة ورحل بهدوء .. كل شيء أصبح الآن يذوب في اللامبالاة وبوسعي أن أعي هذا جيداً ..

قرص القمر يصعد الآن مبتعداً عن النافذة .. لون الشفق بدأ يذوب حوله . هالة النور تتسع الآن رويداً رويداً : « كم كان اكذوبة كبيرة » .. عاوده الصداع من جديد : « اوف » رأسي يكاد ينفجر .. لماذا ؟ ! تناول علبة السجاير وأشعل واحدة . ثم نهض . وقدم اخرى إلى الجندي ، قبلها بعد تردد : « شكراً » قال الجندي ذلك وهو يشعل سيجارته بينما عاد هو إلى مكانه وجلس . التفت إلى الجندي قائلاً :

– **هل أستطيع الذهاب إلى الحمام ؟!**

أحس في نفسه بوخز وهو يتساءل : « لماذا قدمت له سيجارة » .. أحس كانه رشاه .. أو على الأقل سيتصور الجندي ذلك .. قرر ألا يستغل أية مشاعر ودية قد تثيرها هذه السيجارة ، قبل أن يجيب الجندي :

– **بالطبع .. تفضل ..**

– شكراً ..

ولكنه ظل جالساً في مكانه بلا حراك .. تطلع إليه الجندي متسائلاً :

– لماذا لا تذهب إلى الحمام ؟!

– لأنني لا أريد ذلك ..

قال الشرطي في دهشة :

– ولماذا سألتني اذن ؟!

– فقط لأعرف ما إذا كنت تملك هذه الصلاحية أم لا ، وما إذا كنت أملك هذا القدر من الحرية ، أم لا ؟!

ابتسم الجندي وهو يقول :

– أنت غريب حقاً ! !

سحب نفساً طويلاً من سيجارته وقال :

« ولكن الحرية دائماً هي الرائعة .. » هكذا يقول رفيقي ، وقد شاركته هذه الحقيقة قبل لحظات ! !

سحق عقب سيجارته في الطفاية التي امامه ، واسترخى من جديد : « حين ارتب ذكرياتي سأحذف هذا الفصل الكئيب من صفحاتها » .. ثقلت اجفانه فجأة فاغمض عينيه : « لا بد أن تكون للمرء ذكريات اكثر مجداً » .. تثاءب طويلاً ثم ما لبث أن ذاب في الصمت .. وغرق في نوم طويل ! !



في انتظار الصيف



في انتظار الصيف

وهكذا رحل الصيف ببساطة ، برغم أنني لم أكن أنتظر أنه لن يرحل .. وكان هذا محزناً جداً بالنسبة لي .. بعدئذ جاء الخريف ليعري كل غراسنا .. هذه الصفصافة العجوز ، وهذه الصنوبرة التي ما فتئت تمتص أعماق الأرض ، وأشجار الحناء التي أسقطت كل أوراقها ، صور تبدو كما لو لم أشاهدها من قبل .. لقد عشقت الصيف .. أحببته بكل رطوبته ، وأحلامه الساحلية .. في الفجر تبكي عيون الليل وتذرف ضباباً بارداً لزجاً ، ويستحيل كل شيء إلى رطوبة تقزز النفس ، ولكنها تحمل إليّ روائح تذكرني بأشياء كثيرة جداً ، وحميمة جداً .. في هذا الصيف تصلبت قدماي على رصيف الميناء .. لم يبق في الساحة غير روائح العرق والملوحة .. وبقايا الضباب .. لململت كل أوراقي ، وصحف الصباح ورحلت .. غاص قلبي في أعماقي .. كانت المرارة قاتلة في نفسي .. إنني أذكر يوم ودعتك .. كان وداعنا حاراً ، وصامتاً .. لم نقل شيئاً أبداً .. ولكن الموقف كان محزناً ، فأنا أكره الوداع .. لأنه يثير في نفسي قلقاً لا حد له .. ويدفعني إلى الضياع .. يومها قلت لي إن الحياة شائكة .. كانت

عيناك الحزينتان ـ وقتئذ ـ تغسلان الفراغ من خلال النافذة .. أذكر ذلك جيداً .. قلت لك :

ـ حقاً .. ومن أجل ذلك أحبها لأن لذة الحياة في هذا العراك الذي نعيشه ، ولأن هناك أملاً ينتظره الانسان دائماً .. قلت لي :

ـ وأي أمل ، ونحن نموت .. ما قيمة الحياة بعد الموت ! ؟

ذهلت لجوابك ، فلم يخطر ببالي أن لك نظرة كهذه للحياة .. وأجبتك :

ـ الموت شيء إنساني يا عزيزتي ، انه ينهي ذلك الصراع ، ومن حسن حظنا انه يزورنا بدون موعد .. وقد يكون الانسان قد انتصر وعاش نشوة انتصاره قبل ان يدركه الموت .. وقد يكون قد أخفق .. ولكن عزاءه أن الخصم هو الحياة في كل الأحوال ، وأنه لم يستسلم .. ولذلك ، لا يخلف إخفاقنا حسرة في أنفسنا ، لانعدام التكافؤ .. ومن يقف في وجه الحياة ! ؟

ـ حقاً .. من يقف في وجه الحياة .. من يقوى على صراعها ! ؟

كذلك أجبتني ، وأنت ما تزالين تذرعين الفراغ بعينيك اللتين كانتا تمارسان حزناً قاتلاً ، بيد أنهما كانتا صافيتين مثل زرقة بحيرة هادئة .. لقد سافرت فيهما طويلاً .. احببت حزنهما حتى الموت .. مرة اخرى غاص قلبي وأنا أتطلع اليهما وأعيشهما أكثر .. احسست بمرارة قاتلة ، وأنا أتذكر رسالتك الأولى .. قلت لي :

ـ « كانت أياماً جميلة ، ومحزنة .. جميلة ، لأنني عشتك حلماً طاهراً أمتع روحي حتى الموت ، ومحزنة ، لأنني سأغادر حياتك ، لأنها لم تعد لي ، ولم تكن لي ، رغم انك تحاول ان تكون كذلك .. انها لطفلك وزوجتك ، وكل المبررات التي ذكرتها لا تعني عندي سوى المرارة التي تغص بها حلقي .. انني أتألم يا (احمد) لأنني عرفتك ، ولأن المرأة الأخرى في حياتك شبح يهددني في صحوي ومنامي .. « انني أشعر بضآلتي أمامها » .. انني اشعر بأنني اسرقها ، وانا لا اريد أن اكون لصة .. صحيح ، انني لا أعرفها ، ولست وحدي المسئولة عن كل الذي حدث ويحدث الآن .. الذنب ليس ذنبي ولا ذنبك ... ان سراً خفياً يقودني واياك إلى هذا الضياع الذي نتيه فيه .. ولكن هذا كله لا يبرر موقفي تجاه نفسي .. ويومئذ ، قلت لي بعصبية :

ـ « ان هذه هي ارادتي أنا ، وأنا الذي أتحمل مسئولية تصرفي ، وأنا اعرف ما أصنع .. »

« كانت كل كلمة ، في كتابك المطول ، تحطمني ، وتشل تفكيري ، لأنك تملك منطقاً لا استطيع ان اجاريه ، بيد انني كنت طوال سني ضياعنا ، احاول أن اقنع نفسي بلا فائدة .. أن فيها حرباً ضارية لا ترحم .. انني اتحطم من الداخل .. بدون جدوى .. أما أنت ، فلعلك تكون أقوى مني ارادة .. حاول أن تنسني .. لا تفكر فيّ مطلقاً .. وستنجح . انني واثقة من هذا .. ! ! »

* * *

هكذا ببساطة .. قوضت صرحاً شامخاً في نفسي ظلت مشاعري تبنيه سنين طوالاً .. مسكينة .. كم هي طيبة .. ولا ادري كيف تتصور أن اقتلع تلك الصفصافة العجوز من جذورها .. والصنوبرة الهائلة التي تمتص اعماق الارض .. واشجار الحناء التي تعرضت لألوان من عوامل التحات والتعرية .. رياح الخريف ، وحرارة الشمس ، وندى الصباح المالح في مدينتنا الساحلية .. وأسأل نفسي : كيف حدث ذلك ، قبل أن تخضب كفيها الصغيرين ! !

وكان عليّ أن أبدأ رحلة طويلة من العذاب .. لقد مرت سنوات .. عشت جفافهما بكل مرارته ، كانت قسوتهما أكبر من مجرد كلمة لم تجف بعد . ومع ذلك ظللت انتظر الصيف ، واتطلع على الارصفة في وجوه المسافرين .. لم تكن رحلتي في عينيك الحزينتين ، الصافيتين مثل زرقة بحيرة هادئة ، قد انتهت .. لقد كانت رحلة متعبة .. كيف أنسى ! ؟

وظل هذا السؤال مصلوباً في أعماقي بدون جواب .. كان صراعنا قاسياً ، وضارياً .. صراع مع الحياة ، والالم والليل .. زوجتي قالت لي ذات مرة :

– إن حياتنا اصبحت لا تطاق ..

قلت لها :

– وهذا رأيي أنا أيضاً ! !

– ما الذي تنتظره إذن ! ؟

دهشت للسؤال .. كان سؤالاً جريئاً ، وجارحاً لم أتوقعه .. ضبطت اعصابي وحولت الموضوع بسرعة قلت لها :

– من منا كان السبب .. انا أم أنت ؟

– الذين جمعوا بيننا كانوا السبب .

– غيرنا جمعوا بينهم بدون اختيار ، ومع ذلك يعيشون سعداء ..

– السعادة نقرأها في الصحف .. هه .. انها كلمة غريبة بيننا .

– ولكنها حقيقية ، وموجودة فعلاً ، .

– من الذي حال بينها وبيننا اذن .. انها لا تعرف الطريق الينا ..

– لأنك تسدين كل الطرق في وجهها .

– ولماذا لا تكون أنت الذي تسدها ..

– لقد تعودت منك التهرب من اخطائك .. كبرياؤك وعنادك يعميان بصيرتك .. فلا ترين الامور إلا من زاوية أنانيتك !

– وماذا تنتظر إذن ؟ !

فوجئت بالسؤال للمرة الثانية .. ترى ما الذي كانت تفعله هي ، لو كان الأمر بيدها .. حتماً لكانت قد حسمت الموقف .. قلت لها وأنا احاول ضبط اعصابي :

– انها نغمتك الوحيدة التي تجيدينها

– بل هو الحل الوحيد ! !

– ألا تلعنين شياطين هذا الليل ، وتنامين ؟

– حقيقة ان الموقف أصبح لا يحتمل .. وأنا اقول لك بصراحة :

– ماذا تنتظر .. ألا تسمعني ! ؟

بلى .. انني أسمعك ..

– ولماذا تصمت اذن .. قلها وأرحني .. إنك تثير اعصابي بهذا الصمت ..

– لأنني لست امرأة ..

– اعلم انك لست امرأة ..

– ولكنك لا تعلمين أن الرجل وحده هو الذي يحتفظ بعقله متوازناً في مثل هذه الظروف .

– انه مغرور .. لأنه يتصور أنه كل شيء..

– المرأة هي التي علمته الغرور ..

– لأنها تبالغ في تقديره ..

– هذا واضح من تقديرك لي .. اليس كذلك ؟ ..

صمتت لحظة .. قلت لها :

– لماذا لا تجيبين ..

– انك لا تحسن سوى الجدل ، وتريدني أن أسهر الليل بطوله في جدال ..

– من بدأ هذا الجدال .. بل من الذي يبدأه في كل مرة .. أنت أم أنا ! ؟

– ستقول لي أنت .. أليس كذلك ؟ حسناً .. هل أبدأه

بدون سبب ..

– سبب تافه جداً ، يمكن أن ينتهي بسؤال وجواب ! !

* * *

هكذا دائماً نبدأ .. وهكذا ننتهي ، ولكن لنبدأ من جديد .. أرأيت كيف تقسو الحياة حتى في داخل البيوت .. ما قيمة الحياة اذا عاد الأنسان من شقائه اليومي إلى البيت ليبدأ شقاء جديداً كان من المفروض أن يكون راحة .. إنه واحد من نماذج كثيرة ، وكذاب من يقول ان البيت دائماً للراحة .. احياناً يكون موطن شقاء .. هكذا المرأة دائماً .. اعصابها مثل اوتار الجيتار ، رقيقة ، ولكنها مجنونة .. احداهن قالت لي ذات مرة : « نحن بناة المجتمعات » وكنت أقول لها ان المرأة هي التي تعطل مسيرة الرجل دائماً .. ودار بيننا حوار ساخن ونحن على ارتفاع ١٠,٠٠٠ قدم على متن طائرة بريطانية .. المضيفة أعلنت ذلك ، وحوارنا في أوجه .. كانت تدرس الطب في احدى جامعات انكلترا .. سألتها في إحدى مناسبات حوارنا :

– ما هي الغاية من مواصلتك للدراسة ؟

تغير وجهها .. لقد دهشت لسؤالي .. قالت :

– ان الرجل يا عزيزي يستغل المرأة لأنه يملك اقتصاد البيت .. لأنه مصدر « لقمة العيش » .. والمرأة هي التي تقبع في البيت لتنجب الأطفال مثل بقرة ولود وتنتظر حسناته ، وعليها أن تكون لبقة جداً لئلا تعكر مزاجه ، لأن حسناته تزيد وتنقص حسب


Herald Tribune
U.S., N.Y.

هذا المزاج .. لقد أصبحت هذه النغمة خرافة الآن ، ولا بد لحواء من الاستقلال الاقتصادي لتستطيع تحمل مسئولياتها عند أول بادرة تعنت من آدم المغرور .. لقد انمحت خرافة « لقمة العيش » هذه يا سيدي ..

دهشت لمفاهيم جارتي .. كنت اصغي اليها بكل حواسي .. لقد كانت تتحدث بيديها وعينيها ، وبكل جوارحها في حماس .. قلت لها :

– سيدتي .. اذا كانت « لقمة العيش » هي التي تجمع بين الرجل والمرأة في نظرك ، فإنك تنسفين معنى أعظم وأسمى علاقة انسانية على الأرض ..

– أنا لا أتصور أن الرجل يضع في حسبانه غير جبروته وتسلطه .. ومن هذه الزاوية تبدأ تعاملاته .

– أنت مخطئة يا سيدتي .. انك تتوهمين أموراً لا تخطر ببالنا نحن معشر الرجال ..

– لعلك تتحدث عن نفسك فقط ..

– وقد تكونين أنت كذلك ..

– ولكنني مصرة بأن استقلال المرأة الاقتصادي أصبح شيئاً ضرورياً لحواء لتصون كرامتها على الأقل في لحظة من لحظات تعنت آدم ..

– سيدتي .. صدقيني ان بعض النساء (أرجل) من أعتى الرجال .. وقد يعود الرجل إلى رشده .. أما المرأة فلا تعود .. انها

انسانة متعبة ..

– ولكنها أساس الحياة .. ويكفي أنها وراء كل عظيم .. ولم يقولوا «وراء كل عظيمة رجل» ..

– لأنه ليست هناك عظيمة .. وإذا كان صحيحاً أن وراء كل عظيم امرأة .. فإنه يصح أن يقال إن وراء كل شقي امرأة أيضاً .. ومن المحتمل جداً أن يكون وراء كل وغد أيضاً امرأة .

ضحكت وهي تقول :

– إن احكامك قاسية جداً يا سيدي ..

– ولكنها حقائق ..

– ربما ! !

عند هذا الحد انقطع حديثنا حين ارتطمت الطائرة بالأرض في هدوء وسرعان ما بدأت استعرض في ذهني نموذجاً آخر من النساء ، وأنا أحمل بعض أمتعتي في طريقي إلى جمرك مطار بيروت .. كان الجو بارداً جداً ، وكانت تلك الكلمة الضخمة ما تزال ترن في أذني :

« وماذا تنتظر إذن » ؟!

كنت أضغط على أعصابي لأكون هادئاً . « السعادة نقرؤها على صفحات الصحف » . « لأن هناك شيئاً اسمه السعادة فعلاً » .

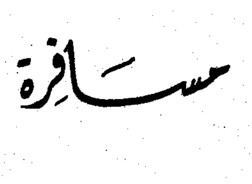
كانت العبارات تتدافع في ذهني بسرعة فائقة :

« وراء كل عظيم امرأة .. هراء .. من قال هذا .. انني أتعس رجل وراءه امرأة .. ان أي عظيم لم يصبح عظيماً لأنه كانت وراءه

امرأة .. ولكنه كان عظيماً لأنه يملك مقومات العظمة ، بدليل أن كل شقي وراءه امرأة ، ومن الجائز جداً أن كل فاشل وراءه وامامه امرأة أيضاً ..

كنت الهث وأنا اقول هذا .. وأحسست على التو بمجد كبير .. بيد أنني ندمت لأنني لم أقل لها ذلك .. درت في المطار اتفحص وجوه المسافرين ، علني أجدها .. لكنها كانت قد رحلت .. كان الجو يزداد برودة .. أحكمت (الشال) الصوفي حول عنقي ، وقتلت رغبتي الجامحة في صدري ، ورحلت .. وفي الطريق كنت أستعرض مرة اخرى كل ما دار بيني وبين طالبة الطب التي كانت لحظتئذ تواصل رحلتها إلى لندن .. تذكرت على الفور بعض الوجوه في المقاعد المجاورة .. رجل وزوجته كانا يتشاجران بهدوء .. والمضيفة الانجليزية الرشيقة التي شنقت ابتسامة مصطنعة على شفتيها .. وطفل يعبث بين يديه بطائرة هليكوبتر .. ورجل ضخم فرد بين يديه « الهيرالد تريبيون » .. وتذكرت الصيف ، والصفصافة العجوز ، والصنوبرة الهائلة التي ما تزال تمتص أعماق الأرض ، وأشجار الحناء التي ذبلت كل اوراقها قبل ان تحصي كفيك الصغيرين .. كانت أرصفة الوداع تمتد أمامي بطولها وعرضها في مطار المدينة .. كان الوقت فجراً .. وكان الضباب كثيفاً جداً .. كان كل شيء لزجاً يقزز النفس ، بيد أنها كانت محملة بروائح تذكرني بأشياء حميمة جداً .. سأظل أذرع أرصفة الميناء ، أتفحص وجوه المسافرين والعائدين في انتظار صيف جديد !!




مسافرة



مسافرة

كان الوقت مساء .. والمكان صالة انتظار .. وقفت قبالتك رغماً عني .. احسست كأنني أعرفك منذ أعوام .. لم أقل شيئاً .. ولم تقولي أنت شيئاً .. ولكنني شعرت وقتئذ كأن شيئاً ما لا أعرفه كان يجري بيننا في صمت ، كأنما هو عملية ارسال واستقبال .. شيء ما ، كان يشدني اليك بقوة ، لمحت في عينيك نداء جريئاً .. صيحة برية آتية من الأعماق .. حاولت تجاهله .. ولكنه كان اكبر من ارادتي واقوى من عزيمتي .. تسمرت قدماي حيث انت ، ووقفت اشهد في خشوع نبض ذلك الجمال المجنون .. عيناك المسافرتان بأحزان الوداع ، وسمرتك الصافية المتحركة كسمرة مياه النيل ، وملامح وجهك الريفية التي تحمل حكايا الفلاحين ، وأغنيات الحصاد .. وقتها كنت تقلبين صفحات كتاب بين يديك .. اجتاحتني رغبة مجنونة لأن اعرف ما اسمه .. ما عنوانه .. ربما كان هذا نوعاً من الفضول ، او سميه ما شئت ، لا يهم ، وحين لم أتمكن من ذلك كتمت رغبتي في صدري ، ولكنني في ذات اللحظة فكرت أن أقتحم عليك عالمك الذي تعيشين بين دفتي ذلك الكتاب .. نشرت كل اشرعتي لأبدأ سفراً

مجهول المصير إليك .. قلت لي فيما بعد :

– اذن كنت تسرقني المتعة دون استئذان ! ؟

– بل انت التي كنت تسرقين ذوقي ..

–كيف ! ؟

– استجبت لنداء عينيك ! !

وسألت انت في سخرية لاذعة :

– بدون ان ادري ؟؟

– ربما ..

ابتسمت انت في خبث .. وفهمت انا ما تعني ابتسامتك .. ومع ذلك لففت الموضوع .. كانت مناورة ذكية منك .. اطرقت انت لحظة ، ثم تحولت فجأة إلى شخصية جديدة .. شخصية ولدت تواً ، ما أقدر المرأة على التمثيل .. قلت لي :

–كيف تخاطبني بمثل هذه الجرأة ! ؟

وذهلت انا لهذا التحول المفاجىء .. ولذلك تباطأت في الجواب .. مضت برهة قصيرة قبل أن أجيب .. ولحظتها قررت بيني وبين نفسي ان أواصل المغامرة .. وبنفس السلاح الذي اشهرته في وجهي ..

قلت في لا مبالاة :

– المسألة لا تستوجب جرأة كما تتوهمين ! !

لاحظت انك فوجئت بالجواب .. ربما لأنك تصورت انك اخرستني .. قلت لي :

- والآن ماذا تريد ! ؟

ابتسمت في برود .. واعترف بأن ابتسامتي لم تكن تخلو من خبث قلت لك :

- سؤال سخيف حقاً ..

- وقح .. ! !

كذلك صرخت ، في وجهي في جنون .. ولكنني احتفظت ببرودي وفي ذات الوقت سررت لأنني استطعت ان اصل بك إلى هذه الدرجة من الانفعال .. لقد تعمدت ان اثير اعماقك ، وأرجها لتخرجي من جمودك ، وكنت موقناً بأن هذا هو الطريق اليك .. كنت موقناً بأن في وجدانك ارضاً خصبة ستثمر قطعاً ان انا احسنت عزقها .. أدرت لي ظهرك ، وأشعلت انا لفافة ، وجلست انفث دخانها في هدوء .. قلت لك :

- لم تثورين هكذا كالأطفال !؟

- ألا تريد أن تصمت ! ؟

كنت انت على وشك البكاء .. اشفقت عليك .. ولكن سرعان ما تخلصت من ضعفي .. قلت في نفسي : هذه فرصتي ، وصممت على اقتحام عالمك الغامض .. كانت شواطئك تلوح مغرية على البعد .. قلت لك :

- المسألة لا تتعدى احد امرين .. اما انك تجهلين وظيفتك كامرأة ، وأما ان هناك خللاً في تكوينك ، وفي كلا الحالين ، اعذرك .. فأنت مسكينة حقاً ! !

.. فجأة جحظت عيناك .. تحولت إلى نمرة شرسة :

« طخ .. طخ » .. تصورت أنك صفعتني ، أو على وشك أن تفعلي ذلك .. ظللت أحدق في عينيك المسافرتين بأحزان الوداع ، في برود ، وفي ذات اللحظة كنت تحدقين في عيني .. كانت موجة عاتية ولكنني تلقيتها بصمود ، فانداحت مثل فقاعة صابون !! .. ذهلت أنا ، وطرفت عيناي .. حتى هذه اللحظة لم أكن واثقاً من أنني نجحت .. غاص قلبي في أعماقي .. خيل إليّ ان كل الجدران التي من حولنا تحولت إلى عيون تخترق جسدي ، مع أن الذين من حولنا كانوا مشغولين بأنفسهم .. لقد ادهشتني سرعة تحولك ... كنت اتصور انك مسورة بأسلاك شائكة كمعتقلات أسرى الحرب .. وان امامي طريقاً طويلاً وشاقاً يتوجب عليّ أن أسلكه قبل أن أصل إليك .. كذلك بديت لي أول الأمر .. ولكن هذا التحول المفاجئ أغراني باستسلامك .. قلت لك في غباء :

– انني أنتظر هنا من أجلك ! !

وليتني لم افعل .. كنت ملاحاً غبياً .. ابتسمت أنت في خبث .. وسألت :

– لماذا .. هل تعرفني ! ؟

واحسست برخاوة ناعمة في صوتك .. قلت لك :

– منذ الف عام .. ! !

ضحكت انت .. وقلت لي في خبث :

- كذاب ! !

ولحظتئذ أيقنت أنك استعدت كل أسلحتك واتخذت تكتيكاً جديداً لا أدري مداه .. احتفظت بهدوئي وقلت :

- شدني نداء عينيك ، ولم اكن اعلم انك على هذا المستوى من البرود .. انت انثى معطلة ! !

- انك تسيء الي ..

شعرت في لهجتك ببوادر استسلام ممزوجة بكبرياء .. تجاهلت ذلك وقلت :

- لم اقل غير الواقع ..

وتراخيت انت .. لمحت الاستسلام في عينيك من جديد .. ومضى مركبي مع الريح يجري رخاء .. كانت شواطئك تدنو مني ..

« رائع هذا » واحسست بدمائي تتدفق حارة .. انه تقدم لا بأس به .

« ايها البحر الجبار .. هكذا تفجرت امواجك في لحظة .. ها أنت تستسلم في هدوء .. »

لمحت بوادر ندم في عينيك ، فتظاهرت بالتسامح .. قلت لك وابتسامة عريضة تسبقني :

- لا عليك .. كنت أتوقع شيئاً كهذا .. المهم أنك رفعت

الآن هذا القناع الزائف بيننا .. قلت لي :

– ولكنني مسافرة ومن العبث أن تربط مصيرك بي ! !

– اعرف ذلك ! !

– اذن انت تجري وراء سراب ! ؟

– هذا اذا كان هناك غيري في الطريق ! ؟

فوجئت انت .. ولم تجيبي .. قلت لك في ضيق :

– لم لا تجيبين ! ؟

– « .... »

ونهضت انا قائلاً :

– ألف تهنئة له إذن .. انني أشد على يديه بحرارة ..

وتباطأت لأرى وقع العبارة وما سيحدث بعدئذ .. وكنت مصيباً .. لقد كانت الرمية محكمة .. كنت اشهد مروق السهم نحو هدفه .. وفجأة رفعت رأسك في ذعر وأنت تقولين :

– من تعني ! ؟

عظيم .. هذا بديع .. صرخت في اعماقي .. كانت اصابة رائعة .. واحسست بنشوة بالغة وانا اقول :

– ذلك الآخر الذي في الطريق ..

– في طريقي انا ! ؟

– نعم ..

– لم اقل ذلك ..

« يا ملاح ارخ اشرعتك .. للرياح » .. قلت :

– ولم صمت اذن ! ؟

– لقد بدأت اخاف منك ..

وكانت هذه هي البداية .. « هدأت الرياح وبدأت الشواطىء تخضر » .. ولحظتها احسست بدمائي تتدفق حارة في عروقي من جديد .. قلت لك :

لماذا ؟ !

– لأنني لن اراك بعد اليوم ! !

وانتفض جسمي بالرغم مني .. كان اليأس يقطر من عينيك .. استعدت هدوئي ، وقلت لك :

– اكتبي لي من هناك ! ..

– أنا لا اؤمن بهواية المراسلات ! .

– ليس شرطاً أن تؤمني بها ما دامت بريئة ..

– كيف امارس شيئاً لا اؤمن به ؟ !

– الانسان يمارس اشياء كثيرة لا يؤمن بها ..

أطرقت انت لحظة ثم تناولت بطاقتي في صمت .. عيناك كانتا مشفقتين .. سألتك :

– متى تسافرين ؟ !

– في الصباح الباكر ..

غاص قلبي في يأس العبارة .. احسست بأنني افتقدت شيئاً حميماً ، بالرغم من ذلك الصراع المضني الذي عشته معك .. قلت في ألم :

- سأكون في وداعك غداً ..

لم تقولي شيئاً ابداً .. كنت باردة ، وتمنيت في تلك اللحظة لو صفعتك .. لقد آلمني صمتك .. بصقت على الأرض بمرارة وغادرت المكان ، .. فكرت أن احطم مركبي وامزق اشرعته ، وفي الطريق سحقت عقب السيجارة التي كانت بيدي .. سحقته بغضب ، ومضيت .. في الليل سهرت كثيراً مع بعض الأصدقاء ، وحين اضطجعت على فراشي تذكرتك على الفور .. استعرضت كل الذي دار بيننا ، وعجبت لتأرجحك المخيف بين الرضا والنفور .. « أي نوع من النساء انت » .. تقلبت في فراشي طويلاً قبل أن أنام .. نهضت أكثر من مرة .. قربت الساعة عند رأسي وضبطت عقرب الجرس على السادسة صباحا ، فحتى هذه اللحظة ، كنت على وعدي بأن اكون في وداعك في الصباح .. ولكنني عدلت عن ذلك قبل أن انام بدقائق .. صارعت نفسي طويلاً .. « المسألة مسألة كرامة .. ولكنها صمتت فقط ولم تسئ اليك .. هل تريدها ان تقول لك تعال لتودعني في الصباح ! ؟ لا .. هذا كثير » .. كان حواراً حاداً .. ثم لا اذكر اين وصل هذا الحوار ، سوى انني كنت قد قررت في بعضه ، ان لا آتي اليك .. كانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل .. بعدها بدقائق نمت ! !

في اليوم التالي صحوت في جو يغمرني بالدفء .. وفيما انا أتقلب في فراشي تذكرتك من جديد ، وسرعان ما نهضت

واختطفت الساعة في ذعر .. كانت تشير إلى العاشرة صباحاً ..
غاص قلبي من جديد ، واحسست بمرارة قاتلة .. هيأت نفسي
بسرعة الى الخروج .. كنت يائساً .. وفي الطريق الى المطار كنت
اشعر كأنني اعدو وراء مجهول .. كأنني اطلب المستحيل ..
دخلت صالة الأنتظار واليأس يمزق نفسي .. جلست الى طاولة
تخيلت انها التي كنت تجلسين عليها قبل أربع ساعات ..
كان المسافرين يروحون ويغدون ، في جو خانق من الدخان ..
خليط من الناس كانوا يثرثرون بأكثر من لغة ، وطفل يصرخ
في ركن هنا ، وآخر يلعب هناك ، وعبر الزجاج العازل للصوت ،
كانت عربات الامتعة تزحف مثقلة بالحقائب المسافرة ، وأكثر
من طائرة تدير محركاتها استعداد للاقلاع ، وبعضها ترسو بحذر
شديد .. مسافرون ، وقادمون وحاملات وقود ضخمة تحقن
أجنحة الطائرات بالوقود .. وعربات الصيانة تتحرك هنا وهناك ،
كان الجو بارداً جداً في الصالة ، وقتها حانت مني التفاتة عفوية
انتزعتني من كل هذا الصخب كأنما وضعتك كاميرا سينمائية –
مكبرة – بين يدي دفعة واحدة .. فوجئت بك قبالتي ، وكان هذا
مذهلاً بالنسبة لي .. والتقت عيوننا في ذعر كأنما شدتها المفاجأة ..
اهتز جسمك بعنف .. لاحظت ذلك بوضوح ، واحتفظت بهدوئي
بصعوبة كبيرة ، وانا انهض متجهاً اليك ، وحين اقتربت منك ،
كان اضطرابك واضحاً .. طرفت عيناك في تتابع سريع ولأول
مرة بدت في ملامح وجهك طفلة بريئة ، بالرغم من اتساع
عينيك ، وامتلاء صدرك ، وتفجر انوثتك .. صافحتك وانا

احاول ان اكون هادئاً قلت :

– ظننت انك قد سافرت ! !

وتنفست انت الصعداء .. كأنها ارتخاء اعصاب شدت طويلاً .. ايقنت انك كنت في انتظاري .. قلت في استسلام :

– تأخرت الرحلة ..

– هذا من حسن حظي .. لقد تأخرت في النوم بسبب سهري ليلة امس ..

وسألت انت في اهتمام :

– لماذا ؟ !

ولعلك كنت تتوقعين ان اقول لك :

– « سهرت مع طيفك طوال الليل » .. أو عبارة اخرى شبيهه بها تملأ رأسك غروراً .. قلت لك :

– سهرت مع بعض الأصدقاء حتى وقت متأخر ..

خاب املك .. ورمقتني بنظرة عتاب صامتة .. تجاهلتها وانا اقول : هل ستكتبين لي ؟

– لا أستطيع أن أعدك ! ! :

«الرحمة يا إلهي .. أهو انتقام ! ؟ ليكن .. سأفرد اشرعتي من جديد واجدف حتى النهاية ..»

قلت لك :

– هذا شأنك على أي حال ..

لم يرقك الجواب قطعاً .. ولذلك قلت لي : في عتاب ممزوج بكبرياء :

– هكذا اذن . ! ؟

– نعم .. فأنا احترم حريات الآخرين .. ومن حقك ان تكتبي ، أو لا تكتبين ! !

أطرقت أنت في حيرة .. كبرياؤك كان أقوى من رغبتك في التحول .. أدركت عنف الصراع الذي كنت تعيشينه مع نفسك .. وكان عليّ أن أعينك عليه .. ولكنني حرصت في ذات الوقت على أن لا تشعري بذلك .

– أنت تخدعينني وتخدعين نفسك ! !

– أنا لا أخدع أحداً ! !

كنت واثقاً من أنك تكذبين .. قلت لك :

– انني أشعر بخفقان قلبك ..

– قلبي ملكي أنا وأنا حرة في من أهوى ومن لا أهوى ..

– كان هذا قبل أن نلتقي .. أما الآن فلا ..

– أنت واهم ! !

– لم جفت شفتاك إذن ، حين فوجئت بي قبل لحظات .. أطرافك كانت باردة وأنا أصافحك .. قلبك كان يركض بين ضلوعك ، وكان اضطرابك واضحاً .. لم كل هذا .. ما الذي تخشينه . !؟

– انها أوهامك .. وحتى لو صح هذا فما الذي يعنيه !؟

أتريد أن تقول انك أحببتني في أربع وعشرين ساعة فقط ! !

– لم أقل هذا حتى الآن ..

– ماذا تقول إذن .

– ربما هو اعجاب .. أو هو عطف .. أو ارتياح .. سميه ما شئت .. ولكنه ، قطعاً ، حدث هام بالنسبة لكلينا ! !

– بالنسبة لوهمك .. فقط ! !

– أنت ضحية كبريائك يا صغيرتي .

وفجأة صرخت في وجهي :

– لا ..

وواصلت أنا في استفزازك .. قلت :

– وهذا الانفعال دليل على صدق قولي ! !

مرة أخرى صرخت :

– كذاب ! !

– سامحك الله ..

وفوجئت بك تنفرطين في البكاء .. اضطربت أنا وتمنيت أن لو ابتلعتني الأرض .. خيل إليّ أن جميع المسافرين تجمعوا من أجلنا .. وكان مايكرفون صالة المطار يعلن : حضرات المسافرين .. الرجاء التوجه إلى الطائرة حالاً .. وساد المكان صمت تام .. بعدها تحرك الركاب إلى ساحة المطار .. تناولت يدك لأعينك على النهوض .. تركتها لي في استسلام لذيذ .. أحسست بنشوة تجتاح أعماقي .. قلت لك :

- اهدأي يا عزيزتي .. انني آسف جداً .. لم أكن أقصد أن تصل الأمور إلى هذا الحد ..

وقفت أنت لحظة قبل أن تدلفي إلى الساحة .. كان وداعنا صامتاً .. حدقت في عينيك طويلاً .. كان نداؤهما لا يزال يشدني إليك في عنف من خلال بقايا الدموع .. قلت في همس :

- سأكتب إليك ..

وهنا كنت أرسو على شواطئك بعد رحلة طويلة مضنية .. طويت أشرعتي وأنا أشد على يديك بقوة .. بعدها شيعتك بعيني حتى غبت في جوف الطائرة .. وحين ارتفعت في الأجواء ، كنت أغوص في أعماقي أبحث عنك من جديد .. وكانت كلمتك الأخيرة : « سأكتب إليك !! » ترن في سمعي ، وتطغى على كل صوت .. !!



المحطة الأخيرة



المحطة الأخيرة

لم تكن من النوع الذي يجذب النظر مطلقاً ، ولم تكن تثير أي شيء .. ولكنها امرأة على أي حال .. بعضهن لا يثرن أي شيء .. كانت تدخن بشراهة .. كان أنفها مثل مدخنة هذا القطار الذي ضمهما في تلك اللحظة .. كانت عيناها الجريئتان تتفحصانه .. تقفزان في كل مكان ، وإلى كل اتجاه . أحس بأنها ضاقت تماماً من الصمت الذي خيم عليهما .. فمنذ جمعهما هذا القطار وهو يلملم نفسه في ركن من الغرفة الصغيرة ..

قالت بابتسامة مغرية : لماذا أنت صامت هكذا ؟ !

حاول أن يسيطر على اعصابه ويكون طبيعياً .. قال لها : هل قلت شيئاً .. ضحكت ثم أردفت : ألم تسمعني ؟ قال : بلى ، ولكن هل عنيتني أنا ؟.

قالت : نعم ، لماذا لاتتكلم ؟ .. قال : عم أتكلم ؟ ! ليس هناك ما يثير التعليق .. قالت في حنين تحاول أن تخفيه : قل أي شيء .. تكلم عن الجو مثلاً .. أو اسألني الى أين أريد الذهاب مثلاً .. هكذا يتحدث الناس في القطار عادة ! !

– هذا لا يعنيني ..

– ولكن الناس في مثل هذه الظروف يتساءلون ..

– ان ارادوا ذلك . وانا لا اريد ! ؟

– ولكن أنا أريد ..

– اسأليني إذاً ! !

– إلى أين أنت مسافر ؟ !

– إلى الجحيم هل يرضيكِ هذا ؟

– ليست هناك محطة اسمها الجحيم على هذا الخط ؟!

– ولكن هناك شيئاً اسمه الجحيم ، بدون شك ، أليس كذلك ؟!

– طبعاً

– وماذا تفعل في الجحيم ؟ !

– أظنك معي أن الذي يذهب إلى هناك لايذهب لكي يتنزه مثلاً . ! ؟

– طبعاً ..

– ها انت قد عرفت ماذا يمكن ان يفعل شخص ما في الجحيم ! !

سكتت لحظة .. ثم لمعت عيناها .. عرف أن هناك سؤالاً جديداً :

– أنت لطيف مع كل هذا الغموض الذي يغلف اجاباتك .

– انتبهي يا آنسة . فأنت تغازلينني ؟

ضحكت وهي تقول انك تزداد لطفاً ! !

– « يخص عليكي .. قليلة أدب » استمرت تضحك ..
كان الدخان مازال يعتم الغرفة الصغيرة .. قام وأزاح الستائر وفتح النافذة ..

قالت : لاتفعل ارجوك ..

– لـماذا ؟

قالت : لأنني لا أريد .. ألست أشاطرك هذه الغرفة ؟!

قال : بلى

– ولي كلمة ؟ !

قال : نعم ..

– اذن لاتفعل ! !

– حسناً ..

جلس يتابع صفحات المجلة التي كانت بين يديه في صمت .

– هل تسمح لي بهذه المجلة ! ؟

– لا ...

– لـماذا ! ؟

– لأنني لا أريد .. الست حراً فيما أملك ؟!

– لا . ونزعت المجلة من يده والقت بها على الأرض ..

– أيتها الآنسة إنك تثيرين أعصابي ! !

– حقاً ؟ !

– وأكثر ! !

– ولماذا تتفاهم من خلال أعصابك ؟ !

لأن المرأة لا تفهم إلا من خلال أعصاب الرجل ! !

– انت مخطئ ..

– مخطىء ، والدليل قائم بيننا ! ؟

– أي دليل ؟ !

– هذا الحوار الذي يدور ! !

– انت أردته هكذا ! !

– لأن المرأة تظن نفسها قوة مؤثرة ، وتستطيع أن تحطم إرادة أي رجل .. ولكن ثقي انك لن تستطيعي أن تؤثري فيّ أبداً .. أمامك رجل من نوع آخر تماماً .. أنا حجر لا تزعزعه رياح المرأة .. أنا صخرة .. هل تفهمين ؟!

– مخطىء انت .. كل الرجال يقولون هذا .. ولكنهم يسقطون أمام قوة المرأة الخفية ، وهم يرددون نفس الكلمات ! !

ضحكت ثم تابعت : وانت مثلهم .. « هتلر » كان يعود من الجبهة والحرب في قمتها ليركع بين يدي (امرأة) وهي تنظر اليه من علٍ مزهوة بقوتها التي تزعزع قوة كانت تدك العالم بلا رحمة ، ومثله كثيرون عبر مراحل التاريخ .. هل تظن نفسك هتلر .. أو عنترة بن شداد مثلاً ؟!

– انت مغرورة ! !

– وأنت ألست مغروراً ؟ !

– لا .. ولكنني أعبر عن قوتي الارادية أمام شيطانة من الشياطين .

كان الوقت قد جاوز منتصف الليل .

– قالت تصبح على خير ..

– وأنت من أهله ..

في الصباح استيقظ على طرقات الكمساري على الباب :

– تذاكر .. تذاكر .. !

كانت لاتزال تغط في نوم عميق .. أحس فجأة بشيء من الشفقة نحوها .. أحس بأنه مسئول عنها على نحو ما ، وأنه رجل هذه « الغرفة » لم يحاول أن يوقظها .. بل طلب وجبة افطار خفيفة وهنا تردد .. هل يتركها .. هل يوقظها ؟! وأخيراً قرر أن يوقظها .. فتحت عينين فاترتين .. ولأول مرة يلمح فيهما شيئاً غريباً لم يره من قبل .. قالت « صباح الخير » كان شارد الذهن لم يرد على الفور .. ولكنه انتبه ، رد في ارتباك : « صباح النور .. »

.. دفعة واحدة أحس براحة كبيرة .. غرق في شروده من جديد .. بينما غابت هي لحظة ، ولما عادت لمح ذلك الشيء الغريب حول عينيها يتضح أكثر وأكثر .. شيء ما كأنه نداء يزلزل كيانه .. كأنه واحة خضراء في عالم ليس بالتأكيد عالمه الذي يعيش .. انقلبت أحاسيسه كلها رأساً على عقب ! !

– تعالي مكاني هنا ، أقسم أنك لن تجلسي هناك .. تعالي نتناول طعام الافطار معاً .. لم تندهش هي .. بل جلست في منتهى الهدوء وهي تبتسم في خبث ، ولما انتهيا من طعام الافطار شكرته واستأذنت لتهيئ أمتعتها ..

– إلى أين ؟ !

– سأنزل في المحطة القادمة .

– يا الهي .. كيف تقولين هذا ؟

– هذا هو الواقع .. انظر .. وأطلت من النافذة .. تلك هي معالم المحطة ، هناك سأنزل .. انني أعمل ممرضة في مستشفاها .. قالت هذا وانثنت تواصل تهيئة أمتعتها بينما كان هو يجتر مرارة المفاجأة .. جلست هي بالقرب منه .. كانت طبيعية جداً .. وساد المكان صمت ، تمنى لو يقفز ساعتها من النافذة ويندق عنقه ، ولكن لماذا .. انه لا يدري .. شعور لا يفهمه .. وهنا انطلق صفير القطار يمزق ذلك الصمت بينما كان يتهادى على مشارف المحطة .

قال لها : هل سنلتقي ؟ !

ردت ببرود : ولماذا ؟

– لأن .. لـ .. لا شيء .

واحس بغصة في حلقه .. كان ذلك النداء حول عينيها .. يجوع .. ويجوع ، وكانت الواحة تخضر وتخضر .. فجأة أحس بأنه مشدود إليها وبارتباك قال :

– أردت أن أقول :

ربما نلتقي مرة اخرى ؟ !

قالت : لا أظن . ! !

– لماذا .. ! ؟

– لأنني لا أريد ..

– ولكنني أريد ..

– ما الذي تريده مني ؟ ! وتعلقت اجابته بين شفتيه ولكنه حاول من جديد أن يجيب .. كاد يزدرد حلقه ، لأنني .. لأنني .. أقصد .. لأن في عينيك شيئاً ما يجذبني إليك .. ربما هو هذا النداء الذي يهز كياني ! !

قالت وهي تنزل درجات العربة في المحطة .

– « يخص عليك .. قليل أدب ! »

ودار رأسه مع صفير القطار ليبدأ رحلته من جديد ! !

ليلة من ذات الليالي



ليلة من ذات الليالي

انقلب على الحائط بكل جسمه ، كان التظاهر بالتعب واضحاً على ملامح وجهه اصطنع تثاؤباً بليداً أفلت من فمه كصرخة في برية .. لم يكن مغمض العينين تماماً : «عملية ماكرة لا تخلو من خبث » .. انها « حرب اعصاب » قالها بحدة ، وسرح بعيداً .. انه لا يذكر – الآن على الاقل – فيم كان يفكر قبل لحظات .. « حقاً انها حرب اعصاب .. » حسناً .. انه يشعر الآن بقرف منها ومن نفسه ، ومن كل شيء .. انه لا يشعر – الآن على الاقل – بأهمية الموضوع .. بيد ان هذا ليس هو رأيه النهائي ، ليكن هذا خط رجعة اذا ما غلب عليه ضعفه ذات ليلة ، وربما الليلة ، وربما غداً .. انه لن يخسر شيئاً على أي حال .. ليلة امس أوشك ان يسقط لكنه تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة .. « حرب أعصاب ! ! »

واستعرض العبارة بلذة .. لقد مضت الآن اربع ليال كأنها أربع سنين مع الاشغال الشاقة في سجن قذر .. حسناً ، انه يستطيع الآن ان يراها بوضوح . انه ليس مغمض العينين تماماً ، كان يراقبها بدقة .. « بحق السماء ما معنى هذا القميص الاحمر الفاقع »

هي تعلم أن هذا اللون يضرم في جوفه النار .. كان القميص الناعم ينزلق رويداً ، رويداً .. « لقد جاءت بلعبة جديدة .. سأقاوم حتى النهاية .. انه اسلوب عتيق ولكن لا بأس .. حرب اعصاب .. ليكن .. سأصمد .. انا جليد .. أنا صخرة .. هل تفهمين ! ؟ » كانت انفاسه تلهث .. احس بنعومة وحرارة تسري في كل جسمه .. رجف قليلاً .. هي ايضاً تتظاهر بالنوم .. واحس براحة كبيرة .. لكن لا .. لا يجب ان يستسلم .. لتمت غيظاً .. هكذا .. أهملها تماماً .. الاهمال هو الأسلوب الوحيد الذي تفهمه المرأة » الحرارة تسري في كل جسده : « ولكنها ستنهار قطعاً .. ربما الليلة .. ربما غداً .. انها تناضل بضراوة .. ولكني سأعزز كل جبهاتي ايضاً .. لن اتنازل عن شبر من كرامتي .. واذا ضعفت سأغادرها مع آخر مدينة تسقط في يدها .. هه .. هراء » .. القميص الأحمر لا يزال ينزلق .. لم يتمالك نفسه .. « كم هي خبيثة » القميص ينزلق أكثر .. دار رأسه هذه المرة .. أمعن النظر بنصف عينيه المغمضتين .. قلبه يخفق بشدة .. « أي قوة هذه ؟! » أحس بشرايينه تتورم مثقلة بحرارة اللحظة .. لا .. لن أستسلم . حركة أخرى .. « أيتها الخبيثة ما الذي تفعلين .. لن ادعها تطأ أرضي .. أعلم أنها غير نائمة .. سأحارب حتى آخر رمق .. لمح بركن عينيه أنها تبتسم .. « كذاب » لا بد أنها قالت ذلك .. عدل من وضعه .. غير الوسادة التي تحت رأسه .. هذه لا تكفي .. ثنى ذراعه فوق الوسادة .. حسناً .. انه يقاوم الآن

ببسالة .. « رائع لن أسقط أبداً » ولكن ما مدى التكافؤ ؟! لم يحسب حساباً لهذا !! ليس هذا مهماً على أية حال .. الإرادة وحدها هي المهمة !!

* * *

لم يكن يحبها طوال الاعوام التي مرت كئيبة على حياتهما .. وسنة وراء سنة كانت المشكلة تزداد تعقيداً .. في العام الأول قذفت اليه بطفلين !! كانت مفاجأة له .. كان من الممكن أن يضع حداً لمأساته من اول يوم : « لا ادري لماذا لم ألقمها حبوباً تطفئ بريق الحياة في أحشائها ؟؟ لم أفكر في هذا مطلقاً .. وها هو الطفل الرابع يصرخ كحيوان بري في جوف الليل .. » : «ومن يستر عارك ان لم تسترها انت ؟ ! » .. كان هذا منطق ابيه .. ضريبة قرابة مرهقة .. ولكن إلى متى سيظل يدفع ويدفع ؟ ! مهما يكن ، فإن هذا لا يغير من الأمر شيئاً .. انها تريده كلباً ضخماً تضع في عنقه حبلاً تجره به .. أو ثوراً ضخماً لا هم له إلا الخوار المسعور : « الساعة الآن الثانية والنصف .. اين كنت كل هذه المدة .. نصف ساعة في الطريق .. !؟ لا بد أن هناك سراً تخفيه عني » .. تفكير سخيف ، يتكرر دائماً ، ويعصف بالبيت كله طوال كل يوم .. وفي المساء كذلك .. انها تعيش في غيرة قاتلة .. وهم مرير .. حياة لا تطاق .. لقد كانت له وجهة نظر في المسألة كلها ، ولا تزال « الزواج الذي يقوم على الحب زواج فاشل ، وقصير العمر .. ولكن ما هو البديل ؟ ! »

●

هذا السؤال قفز إلى ذهنه يومذاك .. انه يذكر ذلك جيداً :
« الزواج بدون حب لعله الزواج الأوفق .. » فقد يجيء الحب بعد ذلك ، ويبدأ في الاخضرار في ذات الوقت الذي يبدأ فيه الحب الأول في الذبول .. ورويداً .. رويداً تحلو الحياة ويسعد الزوجان ! ! » .. هراء .. كم كانت معادلة سخيفة .. لقد انتظر طويلاً ، ولكن لم يجئ الحب ولم تجئ السعادة المزعومة .. انها اكذوبة كبيرة .. انه يأكل ويشرب ويدخن بشراهة ويتابع برامج التلفزيون ويتسكع في طرقات المدينة بصحبتها .. كان هذا يكلفه الكثير .. مجاملة كذابة .. كان يبتسم بصعوبة كبيرة .. انها لا ترفع عينيها عنه أبداً .. وهم كبير يسيطر عليها .. تحصي عليه أنفاسه .. : « هذه لماذا تنظر إليك .. أنظر .. وهذه .. انها تهز رأسها .. » وتمر المسألة بهدوء .. وقبل أن تغيب : « وهذه .. لا بد أنها تعرفك .. انها تبتسم .. لماذا تتجاهلها ؟.. رد عليها .. »
وترن العبارة في اذنيه .. ويغلي الدم في عروقه :

– ما هذا كله .. لماذا لا تكونين عاقلة .. ما هذا الوهم الذي تعيشينه ؟ ..

– حسناً .. ليخلو لك الجو .. اليس كذلك ! ؟

– أي جو هذا الذي تتصورين ؟ !

– هذه « المفعوصة الرقبة » أو تلك التي هزت رأسها ..

– وما ذنبي أنا ؟ !

– لأنها تعرفك ! !

– اقسم لك انني لا اعرفها ! !

– ارجوك .. عد بي إلى البيت ..

– اذهبي إلى جهنم ان شئت .. لقد سئمت هذه الحياه .. أوف .. اعوذ بالله ! ..

ويعودان في جو عاصف وتمضي تلك الليلة ، والوضع يكاد ينفجر في اية لحظة .. والآن قرر أن يضع حداً لمأساته : « اربعة اطفال .. عالم بحاله .. ما ذنبهم ؟ ! ولكن لا بأس ، سأجرب .. حقاً انها حرب اعصاب ، ولكنني سأصمد .. لا بد أن اخوض التجربة حتى آخر لحظة .. انها لن تتعدى الاسبوع على الأكثر » .

لقد مرت اربع ليال حتى الآن ، وها هو لا يزال يستبسل في اخراس الوحش المجنون الذي يعوي في جوفه .. قدرة هائلة ، لم يكن يتصور انه بهذه القوة ..

مرة اخرى انقلب على الجهة الأخرى ، عيناه لا تزالان نصف مغمضتين .. القميص الأحمر الفاقع يزداد انزلاقاً .. إنها تتخذ تكتيكاً آخر الآن .. دمه يغلي في عروقه .. هل ينهض إلى الغرفة الاخرى .. ولكن كيف ! ؟ شيء ما يمنعه .. قطعاً ستفسره بالضعف : « لا .. أنا قوي .. أنا صخرة ! ! العطر يملأ الغرفة : « هكذا .. لقد هيأت كل شيء ! ! » .. سيكون انهياره مريعاً .. « دعني انكتم في مكاني » اغمض عينيه بقوة « لن أسقط » .. لكزته .. قطعت عليه كل افكاره .. لم يتحرك .. هزت رأسه بقوة .. فتح عينيه بدهشة :



– ما بك ؟

– لماذا تشخر هكذا كالثور ! ؟

– حقاً ؟! أنا آسف ..

واستدرك :

– ولكن ، لماذا لا تهذبين الفاظك ؟!

– دائماً تحور عباراتي وتعتبرها اهانة لك !!

« يا الهي ما هذه الليونة .. قطعاً انها تعمدت ان تصفه بالثور لتعتذر وتجد مدخلاً ناعماً تكسر به ذلك الطوق المتوتر منذ النهار ..! »

– « .... »

– ألا تنامين ؟!

– وهل تركتني انام بشخيرك ؟

« انها تكذب » .. لم يكن نائماً .. وبالتالي لم يكن يشخر طبعاً ، ومع ذلك تصر .. هل تريده أن يعترف بأنه كان يتظاهر بالنوم .. لا .. لن يعترف .

– نعم .. انا اشخر دائماً .. قال ذلك ثم أضاف : « ربما كان وضعي غير مريح .. أكرر اسفي » قالها بخبث ..

« إنه يكذب !! » .. « لا بد أنها قالت ذلك .. ولكنه نفس السلاح .. ماذا تظن نفسها !؟ »

– هل قلت آسف .. على ماذا ؟! قالتها بتلذذ !

– دعيني أنم ارجوك !!

وفيما كان ينقلب إلى جنبه الآخر ، لاحظ ما أدخلت على تكتيكها من تعديلات جديدة .. كل شيء كان واضحاً .. كان في عينيها نداء جائع .. أحس بأعصابه تنفر من جسمه .. كل عروقه برزت منتفخة تتدفق فيها دماؤه الملتهبة .. كان يجتاحه انهيار مريع .. « يا للسماء .. ماذا فعلت بي ؟.. حرب أعصاب ولكنها الليلة شرسة وضارية .. حسناً .. مزيداً من الصمود ، سأقاوم حتى النصر .. لن أدعها تحتل كرامتي .. » مرة أخرى راودته فكرة النهوض .. بيد أنه صرفها عن ذهنه .. ولكنه تجلد .. الآن على الاقل .. انه يكذب طبعاً .. ولكن لا بأس ، ما دامت المسألة محصورة بينه وبين نفسه .. وانتزعه صوتها من جديد ، ليبعثر كل افكاره :

– هل نمت ؟ !

– « ..... »

لم يجب .. « لماذا لا تدعينني انام .. أو على الأصح اعيش افكاري .. هذا افضل .. على الأقل سيكون أكثر وعياً في مراقبة هذا الحيوان الجائع الذي يركض بجنون في جوفه .. انها تتعمد ذلك .. لا يزال الطوق محكماً امامها .. لكنها تبدو مصرة على كسره هذه الليلة .. الساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل ..

– انت تحتقرني ! !

انها تستفزه .. « نعم » قالها في نفسه ..

– الا تنامين ! ؟

-كيف انام وانت تشخر ؟!

ابتسم هو في صمت ..

وتابعت هي :

- حسنا سأترك لك الغرفة .. ونهضت إلى الغرفة الاخرى .. «حسناً .. هذا تكتيك جديد ، لم أحسب له حساباً» ..

احس بالمرارة تجتاح جوفه دفعة واحدة .. لقد ولى النوم .. أما هذه اللعبة فلا أعرفها . ترى ما الذي جعلها تنتقل إلى الغرفة الأخرى .. نهض من مكانه وتسلل إلى الغرفة الأخرى .. أحست به فجأة .. دخل كالظل .. جلس بقربها .. تطلعت إليه وهي تبتسم في خبث .. قالت :

- ما الذي جاء بك ؟

.. حاول أن ينهض ولكنه لم يستطع .. في الواقع أراد أن يقول شيئاً .. ولكن ماذا كان يريد أن يقول .. لا شيء ضاعت الكلمات .. ارتجفت شفتاه .. انفاسها تلفح وجهه .. كان ينهار بشكل مريع .. حاولت ان تنهض .. دفعها بيده .. كانت عيناها تلتمعان وكان في عينيه نداء مجنون .. افلت الوحش من جوفه .. لم يعد يستطيع السيطرة عليه ، حاولت ان تدفعه عنها .. غرست اصابعها في شعره ، وهي تتلوى .. ناضلت بعنف .. هل تستسلم هكذا ببساطة .. ؟! انها ترغمه على الاعتراف بالهزيمة .. لا .. لن اعترف . الوحش المجنون يعوي في جوفه .. كانت دماؤه

تفور في شرايينه ، كانت عيناه تلتمعان في الظلام .. كان ينهار جزءاً .. جزءاً .. ثم ما هي الا لحظة حتى سقطت آخر مدنه في الظلام ..

الدّوامة



الدوّامة

– من انا .. ؟؟

وارسل عينيه الفاترتين في الفراغ .. ظل السؤال يجلد جوانب نفسه الحائرة في قسوة ... شيء ما هناك يشل حركته .. « الإرادة » .. هه .. انها كلمة فقدت طعمها .. العينان الجريئتان تذيبان فيه معناها .

– من انا .. ؟؟

الله اعلم .. لقد امَّحت شخصيته تماماً .. هل هذا هو ما يسمونه بفقدان الذاكرة .. انني أذكر كل شيء وعلى نحو جيد .. الماضي والحاضر .. وربما استطيع التكهن الآن ببعض ملامح المستقبل .. ولكن الأمور لا تسير ، دائماً ، وفق الافتراضات .. ومع ذلك ليس بوسع الإنسان أن يحيط بكل شيء .. حقاً .. من أنا ؟؟

– لا ادري .. ! !

وارسل عينيه من جديد يغسل بهما الجدران .. الوقت لم يعد له معنى الآن ... ولكن برغم شاربيه اللذين بدآ يتهدلان على شدقيه يجب أن يصدق كل شيء ولا يرفض أي شيء ما دامت

الارادة قد فقدت طعمها في نفسه لأنه لم يعد لها مكان فيها ..
إنه يذكر ذلك اليوم جيداً .. يومئذ أحس بأنه ارتكب ذنباً كبيراً ،
بينما كان رفيقه يلهث بعنف وهو يحاول تخفيف وطأة الحدث عليه :

– اوه .. لا تفكر على هذا النحو البائس ..

كذلك قال له ..

– هذه هي المرة الأولى ...

وتشنجت الكلمات بين شفتيه .. رد عليه صاحبه :

– ربما ..

– لقد كانت تجربة قاسية ..

– هذا في تصورك ..

– بل هو الواقع ...

– كلهم يقولون كذلك ..ويكذبون ؟؟

– إلا أنا .. ! !

– ربما تكون صادقاً .. ولكن انس الآن كل شيء ، وابتسم للحياة .. هيا ابتسم ... هه ؟

ارسل آهة عميقة ثم نهض ومضى ، تكاد قدماه لا تطيقان حمله .. بصق على الأرض بمرارة واشعل سيجارة .. تلفت حوله ، وهو يخرج من الزقاق ، بينما كان هو يبصق في الداخل في نشوة بالغة ، وفي نفسه شعور ما بالانتصار لم يخل من مرارة :

« اللعنة على كل الشياطين .. ها هو يسقط مثل مدينة محاربة تفتح مصاريع أبوابها في استسلام للغزاة .. سنتان انتهتا في دقائق

معدودة .. انه لأمر مضحك حقاً .. »

ابتسم وهو يسترخي على سريره .. سرح بعيداً عبر ذكرياته :
– ولكن ما الذي كان بوسعي أن افعل .. هل كان عليّ أن اجلس هكذا واتفرج ؟ .. طبعاً لا .. كان تصرفاً طبيعياً .. في الواقع لا يهمني ما اذا كان طبيعياً أم لا .. ! ! !

.. لماذا عاد اذن .. « تفي » .. انهم جميعاً يقولون كذلك .. (تفي .. تفي) .. مهما يكن .. لقد انتهى كل شيء الآن .. ليعد ، أو لا يعود .. ليس هذا مهماً.. هه .. ولكنه سيعود قطعاً ، .. التجربة لم تكن صعبة كما اتصور .. على الاقل بالنسبة لي أنا ..

وضحك في سرور بالغ ، ومع ذلك كان يحس ببعض الندم .. بصق من جديد .. كانت أمسية رائعة : .. « إنها المرة الأولى » .. هه .. هراء .. انه يكذب .. اقسم انه يكذب ... وقهقه بصوت عال ..

–كم كان رائعاً ، ولكن هذا الصنف لا يجيء بغير هذا الأسلوب .. لقد قاسيت من اجله الكثير .. وقتها انتفخت اوداجه كبرياء .. وحين اهملته فوجئت به يعود لاهثاً .. يومها تثاقلت أنا ، وأوهمته بعدم اكتراثي .. كنت اكذب بالرغم من دمائي التي كانت تغلي في عروقي .. اذكر انني بذلت مجهوداً كبيراً في اخفاء ضعفي .

كنت اعرف هذا الذكاء فيه منذ أول يوم ، ولكن ليس بهذا

القدر : « هل لديك من جديد .. ؟؟ » كانت لها رنة رقيقة ومغرية .. ولكنها لم تصرعني كما تصور .. فكرت أن العب أنا ايضاً نفس اللعبة .. قلت في برود :

– ليس بعد .. ! !

فوجىء هو .. لم يكن يتوقع مثل هذا الفتور .. قال في دهشة :

– ولكنك .. قاطعته على الفور :

– هذا صحيح .. أما الآن فالأمر مختلف .. ! !

ساد المكان صمت مطبق ، بيد انني سرعان ما بددته حين لاحظت بوادر اليأس في ملامح وجهه ... قلت :

– دعني افكر ! ..

ارتاحت نفسه .. ثم تتالت لقاءاتنا بدون ان اطرق الموضوع ابداً .. اهملته ..كان لا بد من هذا التكتيك حتى لا يكون هناك خط رجعة .. تركته هو يجيء ، واتجاهل انا ..

أرسل آهة عميقة ، وهو يشعل السيجارة الثالثة .. ألقى بعود الثقاب المنطفئ بعيداً . وانقلب على الحائط :

– ترى هل يعود ! ؟

.. كانت النشوة لا تزال تخدر وجدانه .. بصق على الأرض .. واحتضن جهاز الراديو الترانزستور .. ادار مفتاحه .. وراح يجوب آفاق الدنيا في ضجيج متناقض .. عاد واغلق الراديو .. اللعنة

عليهم جميعاً .. احس بحرارة السيجارة في يده ، فسحقها أمامه .. تطلع اليها برهة يتأملها :

– ستة أعقاب هي حصيلة اللحظة التافهة .. وعشرة اعقاب اخرى .. معادلة مسلية على كومة من الرماد .. ترى ما الذي يشغله ؟؟ ست سيجارات في اقل من ربع ساعة ! ؟ لا بد أن هناك ما يشغله حقاً .. ربما .. على الأقل ، بالنسبة اليه .. قد يكون صادقاً : (كانت تجربة قاسية) .. لقد أحسست بصدق العبارة في لهجته وقتئذ .. اوف .. المهم أن اللحظة كانت رائعة ..

فرك يديه وهو يتمدد على جنبه .. « تفي » .. بصق على الأرض بتقزز .. قلبه الذي كان يركض بين ضلوعه جمد الآن واستكان .. الدماء التي كانت تفور كالغضب في جسده بردت وانتظم تدفقها في شرايينه المرتخية ! !

ايه .. لقد كان طريقاً طويلاً وشاقاً ... انني استرخي الآن في هدوء .. أو هكذا ابدو على الاقل .. ما الفائدة حقاً ما دام القلق يبدد كل شيء .. انه يشغلني بوجوده وغيابه معاً ، بل بغيابه اكثر ... ليتني أجد عينين ارسلهما خلفه ... انا لا أصدقه .. كان بريئاً أو هكذا بدا لي .. أما الآن ففي عينيه مكر العالم . ! !

كانت بقايا العفن تخمد انفاسه .. احيانا تذوب كل الاعتبارات في لحظة ضعف .. وهذا محزن حقاً ... شروخ من كرامته المنهارة تتوهج الآن في مخيلته ..

أوه .. انه دوماً يطأطئ رأسه ... عيناه مرتخيتان ومثقلتان بمكر العالم ...

لكن ما ذنبي أنا .. الكرامة لا تنجبر كسورها ، كان طفلاً كبيراً حين ألتقينا ... هكذا تصورته .. ولكن لم يبد هذا كله مهماً .. كانت الأمور تسير بشكل حسن .. ولكن ، بعدئذ . انقلبت الأشياء .. كنت أعتقد أن إرادته قد ذابت في قدرتي .. كنت ساذجاً لأن إرادتي أنا التي ذابت في قدراته .. ليس بوسعي الآن أن أحدد ، كيف انقلبت الأمور على هذا النحو ... ربما لأنني لم أضع في اعتباري امكانية وضع افضل ،خارج محيط هذه الدوامة ... قد يرضيني فقط بعامل الالتزام أو بحكم العادة التي تجبره على الارتباط بهذا الالتزام .. قد لا يكون الأمر على هذا النحو بالتحديد ولكن الذي اعلمه انني مجبر من الداخل على ارضائه .. تدفعني قوة خفية تستمد طاقتها منه هو ذاته ... هذا محير حقاً .. انني ابكي احياناً .. وأقول « أحياناً » لأنني لم أفقد كل شيء بعد ... ولكنني استطيع أن أدرك بوضوح شديد الآن ، كيف أصبح ضعفي يستعبدني بشكل مريع .. !!

أوف .. انها ذكرى عزيزة حقاً .. ولكن (تفي) عليك يا دنيا .. كل شيء اصبح لا جدوى منه .. الاعتبارات لا تهم ... النظرات التي تخترق ظهره .. الهمسات التي تلسع اذنيه ... الابتسامات الساخرة التي تذرع الشفاه من حوله ... كل هذه لا تهم

ما دام يمتصني ويورق هو كالنبات كل مطلع يوم جديد ... بينما أذبل أنا وأتضاءل ! !

فكر ملياً : «إنها عبودية من نوع سافل .. ولكن كيف يمكنني الانعتاق منها ... الرحمة يا الهي !؟»

ببساطة انتهت به الأمور إلى ما هو عليه ... سنوات بطولها بلا قدرات في العفن ... انها سجن .. سجن ولكن في الهواء الطلق .. ربما ليس ضروريا أن يكون المرء بين جدران مغلقة ليكون سجيناً ، فما أكثر السجناء في الهواء الطلق .. ها ها .. قهقه بمرارة .. لقد عجز تماماً الآن وقنع بلا تردد .. لا شيء اصبح يهم غير الألم ... انه يقنع الآن باعقاب الصوت المتآكلة والأصداء المتعرجة بدون احتجاج . أحس برأسه ثقيلاً يكاد ينفجر ... دوار ... دوار شيء ما ، كالقيء ، يذرع جوفه ، ويشل حركته .. مد يده واطفأ النور .. اغمض عينيه بقوة في الظلام ... ضغطهما اكثر يريد ان يحس بالليل ... حتى الوقت يبدو مختلطاً .. (تفي .. تفي) .. الخبيث يشخر الآن في احلامه البليدة بدون ان يجد نفسه .. ينام بلا هوية .. ويصحو بلا هوية .. فتح عينيه من جديد .. كانت الغرفة تسبح في الظلام .. ثقلت عيناه وتثاءب طويلاً ليغيب في تيه الليل الكبير ! !

صباح لن يتكرر



صباح لن يتكرر

رشف فنجانه ببطء ، وأحس بنشوة بالغة : « الهواء منعش هنا بشكل جيد » مدد رجليه وارتخى على امتداده .. عروقه جافة كالحطب .. بطنه منفوخ كالبالون . صاح بعصبية :

– يا واد فين التعميرة ! ؟

« الحياة اصبحت مملة حقاً .. الإنسان يتمنى أحياناً أن يخرج من اطار نفسه .. انني اتوتر من الداخل الى درجة التمزق لماذا .. ربما هو الشقاء الذي ندفعه ضريبة لهذا العصر الذي لا يرحم .. المرأة اصبحت شيئاً مملاً .. هاتف من اعماقه اضاف : خصوصاً إذا كانت زوجة مشاكسة ! ! .. هذا السجن الكبير عشته سنين ، ثم كانت تحمل في احشائها جنيناً .. لتذهب إلى الجحيم .. كان بطنها ينتفخ كالبالون ويتمدد أمامها يوماً بعد يوم .. إنها تبدو الآن شيئاً رهيباً . شيئاً ضخماً يتدحرج بصعوبة من غرفة إلى غرفة » .. صاح من جديد :

– يا واد فين التعميرة ؟ !

« حسناً .. انها تتوقع الآن حدثاً سعيداً .. « معليش » .. هذه نتيجة طبيعية ، ولكن هذا السجن يكبر يوماً بعد يوم .. ويضيق

الخناق من حوله .. لماذا ... حين ينتصف الليل تهدأ الخطا في الطرقات ، وينشط حوار الضمير ؟

رشف نفساً طويلاً من « الجراك » وتجشأ بصوت عريض .. اللعنة ... صاح :

– هات ولْعة يا واد ..

« المسألة ليست مسألة حوار بقدر ما هي مسألة حرية .. ليلتئذ .. كان حوارنا حاداً .. في صباح ذلك اليوم ندمت ولكن ليس لخطأ ارتكبته بقدر ما كان الندم لانحطاط ذلك الحوار .. لا ادري بم اجبتها وقتئذ .. اذكر ان الاجابة كانت مفحمة .. انا لا اعرف الآن ، ما اذا كنت احبها ، ام اكرهها .. لماذا احبها ، ولماذا اكرهها ؟ .. في الواقع ، انا لم اعد اعرف الآن هل احبها أم أكرهها .. ربما أقف موقفاً في منتهى أطراف الأشياء .. أو ربما في وسطها .. يومئذ تساءلت ، في حيرة : هل مللتها ؟ .. وبالرغم من أن الحالة الشعورية كانت في منتهى الوضوح ، لم أكن متأكداً من شيء .. كنا نجلس الساعات الطوال نحدق في وجهي بعضنا ببلاهة .. لقد انتهى وقت الحب والغرام ، وأصبحت عباراته سخيفة ، وانقلب ذلك كله إلى تحين للفرص ، وانتهاز غفلة أي منا ليتقدم أحدنا خطوة إلى الأمام قبل الآخر في الطريق إلى السلطة .. كان الوقت متأخراً من الليل .. كنت عائداً من عملي كمن يجر رجليه .. بمجرد أن فتحت الباب اعترتني كآبة خانقة .. تجرعت مرارتي ، ودلفت إلى الداخل .. كان الموقف

متوتراً .. لا يهم .. لم اكترث لشيء .. خلعت ثوبي ، وعلقته .. « في نهاية المطاف يعود الإنسان إلى بيته ليستريح .. هذه أمنية غالية .. » .

– ها انت قد عدت اخيراً ؟ !

– « ...... »

الصوت جاء من الداخل .. « ما معنى وجودي اذن ان لم اكن قد عدت حقيقة .. »

– لماذا لا تجيب . ! ؟

– « ...... »

« حوار جديد في جوف الليل .. ذات يوم سأقذف بها من النافذة .. »

دخلت الغرفة الاخرى ، واغلقت الباب خلفي .. « هذه أنجع وسيلة لاغتيال الاحاسيس الشريرة .. انني اعشق الحرية .. حريتي في قبضة امرأة .. لماذا . ! ؟ »

استلقى على فراشه في ضيق شديد .. ارتخى الليل في بلادة .. الجو حار ، ولا من نسمة هواء .. لماذا لم تشغل « المكيف » .. نهض وضغط على زر المكيف ، وعاد إلى سريره .. حدق في السقف طويلاً : « خمسة عشر عاماً ، الوجه في الوجه ، وحيدان ، رحلة طويلة حقاً .. لقد تبدد زمن طويل جداً .. إن آمال الإنسان ومطامحه كثيرة بحيث لا يسعها عمره .. ليس هناك وقت لتحقيق الكثير في حياتنا .. هذا محزن حقاً ! ! » .

نهض فجأة : « الموت لهذا الليل .. ترى كم عمرها الآن ؟ ..

لا بد انها في الخامسة والثلاثين .. ان عمر المرأة يتوقف في ليلة زفافها لا يتقدم خطوة .. امس اقسمت انها في الخامسة والعشرين .. كانت تستدرجني لتعرف ما اذا كنت مقتنعاً بهذا ام لا .. انا سكت .. لم اقل كلمة واحدة ، اغتاظت هي ، ولم تقل شيئاً . ولكنها كانت مقتنعة ، بأن صمتي هذا يعني شيئاً .. لقد تعودت ان لا اناقشها حول عمرها . »

صرخت هي من الخارج :

– حسين .. ! !

توقف تفكيره فجأة .. لم يرد عليها ... اصغى في سكون شديد لعلها تكف ، ولكنها عادت تصرخ من جديد :

– حسين ! !

توقف شعر جلده هذه المرة .. تدفقت دماؤه حارة في عروقه ، والتمعت عيناه قبل ان يجيب :

– ماذا تريدين بحق السماء .. هه ! ؟

فتح الباب ليجدها تنتصب على عتبته .. دفعته ودخلت ، وهي تسأل في حدة :

– لماذا انت هنا ! ؟

– لأنني اريد ان ارتاح .. ! ؟

– ومن الذي منعك من الراحة ! ؟

– لا احد .. لا احد اطلاقاً . ! !

قالت وفي عينيها مشروع خطير :

– حسين .. لماذا لا نكون صريحين ! ؟

اجاب في برود :

– حول ماذا ؟ !

– حول هذه الحياة المملة التي نعيشها ..

– انني أيضاً أشاركك نفس الشعور !!

ثم استطرد وقد أحس براحة شديدة :

– وماذا قررت ؟ !

– الرجل هو الذي يقرر دائماً مع الأسف – لا المرأة !!

– وماذا تطلبين ؟

– ان نضع نهاية لهذه الحياة ..

قال وهو يتجاهل ما تعنيه :

– لكل أول آخر ! !

– حتماً ! !

– وما العمل إذن !؟

– بمعنى آخر يجب ان ننهي هذا الارتباط الثقيل فوراً ! !

– هذا رأيك اذن ؟ !

– نعم ...

– حسناً .. فكري جيداً ، وفي الصباح نضع القرار الأخير ! !

– المسألة لا تحتاج إلى تفكير .. كان يجب ان يكون هذا منذ وقت طويل ..

– ربما .. ولكن نامي الآن . فأنا موافق مبدئياً ! !

* * *



استلقت بجانبه في هدوء .. كانت دهشته كبيرة .. غداً سيسقط هذا البيت بعد خمسة عشر عاماً قضى معظمها في الصمت والتمزق والدفاع عن حريته .. كل هذا النضال انتهى ببساطة كاتفاقية صداقة بين دولتين .. لكن كيف انقلبت الأمور إلى مثل هذا الهدوء .. صمت يحدق في السقف من جديد ، ثم انقلب على الحائط ، وانقلبت هي : « يوم رأيتها لأول مرة ايقنت بأنها الوحيدة التي تستطيع انقاذي في هذا العالم .. ذات مرة قلت لها هذا فابتسمت في رقة .. وتقدمت لخطبتها .. أبوها رفض وأقسم أن لا يزوجني لأنني قلت له في بلاهة : إنني أحبها .. صفعني على وجهي وطردني من بيته .. عدت خائباً ، وكأنني فقدت العالم .. أحسست بأن العالم قد تغير وجهه .. كان الوقت ليلاً .. هربت بفشلي إلى خارج المدينة .. غاص قلبي في جوفي واختنقت .. وهناك جلست أفكر في لا شيء .. عيناي كانتا تغسلان الليل .. شعرت بأن كل شيء قد انتهى .. في اليوم التالي اتصلت هي بينما كنت أحدق في الليل الذي انتصف تواً .. مزق رنين الهاتف صمت الغرفة المرتخي بالطول والعرض .. خفق قلبي بشدة .. في مثل هذا الوقت كنا نلتقي منذ اسبوع عبر الهاتف .. رفعت السماعة .. جاء صوتها يعلن نهاية العذاب :

– حسين ؟ ..

تشنجت أصابعه على السماعة .. لم يقو على الرد .. تهاوى صوته .. كررت النداء .. كنت اجيب بلا صوت كمن يعاني

كابوساً ويستغيث ..

– ما بك ؟ !

قالت ذلك في لهفة .. فأسرعت اجيب بصعوبة :

– لا شيء ..

قالت في صوت تملؤه الثقة :

– حسين .. اسمعني جيداً .. لا بد ان نضع حداً لهذه المأساة ! !

نفس العبارة .. نفس الاصرار ولكن مع فرق في النتيجة .

– كيف ! ! ؟

– ننفذ امنيتنا فوراً !

– كيف ! ! ؟

– نتزوج ...

– وهذا ما جئت من اجله منذ اسبوع .. ولكن ..

قاطعته هي :

– ويجب ان تأتي غداً من اجله ايضا ...

– اين ؟ !

– في المحكمة ..

وارتخت اصابعه ، فسقطت السماعة .. عاد والتقطها في ارتباك .

ما هذا الذي تقولين ؟ !

– هذا اذا كنت لا تزال في موقفك ...

– بالطبع .. ولكن .. اوه .

كانت انفاسه تتلاحق بشدة ..

– انه الحل الوحيد ...

– ولكنك تعقدين الأمور ..

وتهدج صوتها وهي تقول :

– حسين .. هل غيرت رأيك ! ؟

– من قال لك هذا ؟ !

– لماذا تتردد اذن .. اليس هذا ما كنا نتمناه ؟ !

– بلى ، ولكن ..

– ولكن .. ولكن ماذا ! ؟

– واهلك ؟ !

– لنضعهم أمام الأمر الواقع ..

– هكذا بدون استعداد ؟ !

– استعداد قلبينا اكبر من كل شيء ..

وغشيت عينيه دمعة لم تفر .. صمت لحظة .. وصمتت هي . قال :

– حسناً .. لقد اتفقنا ! !

– موعدنا غداً في المحكمة .. هه ! ؟

أحس فجأة كمن يلبس ثوباً أكبر منه .. كان قلبه يخفق بشدة .

* * *

في الصباح التقيا في ساحة المحكمة .. حدقا في عيني بعضهما ولم يقولا أي شيء ..

كان امتحاناً عسيراً بالنسبة اليه ، مرا بصف طويل من الوجوه البليدة .. وجوه أمّحت فيها كل سحنة .. تطلعوا إليهما بعيون تنفذ إلى الأعماق .. كانا حائرين .. تقدم اليهما أحدهم وتبعه آخر .. قالا بصوت واحد :

– مبروك ! !

فوجئ هو :

– كيف عرفتما ..

– الفرحة في عينيكما واضحة .. ولكن ألا تريدان شاهدين !؟

ارتبك هو .. ولم يجب .

– في مثل هذه المناسبات يطلبون شاهدين عادة ..

– حقاً .. لم افكر في هذا الموضوع ! !

قال احدهما :

– لا بأس نحن الشاهدان انا ورفيقي هذا ..

تطلعا اليهما في دهشة : « ما الذي يحدث هنا بحق السماء ! ؟ » .. نظر الى عروسه في حيرة .. ارتخت عيناها ومضيا في صمت .

وامام القاضي وقفا مرتبكين .. تطلع اليهما القاضي طويلاً وهز رأسه ، كمن عاد تواً من اعماقهما .. سألها :

– اسمك ؟

– ...

– العمر ؟

– ٢٥ سنة .

– اين وليك ؟

– انا ولي نفسي ..

ثم عاد وسأله :

–كم المهر ! ؟

– لا شيء يا سيدي ..

سألها هي :

–كم المهر ! ؟

– لا شيء يا سيدي .

اندهش الرجل .. أطرق لحظات ، بينما وقف كليهما يتطلع اليه في قلق .. رفع القاضي رأسه وابتسم :

– حسناً .. ليبارك لكما الله ..

وخرجا فرحين ، بينما كان الشاهدان في دهشة .. وفي فناء المحكمة .

سألهما :

كم تريدان ! ؟

– لا شيء ياسيدي ! !

القاهرة ـ مارس ١٩٦٨ .



ظلال امرأة



ظلال امرأة

تململ في سريره الأبيض قبل أن يدرك ما حدث .. احس بثقل في ساقيه .. قطب جبينه ، وأغمض عينيه بقوة تحت وطأة الألم .

– حمد الله على السلامة .

فتح عينين زائغتين بصعوبة ، كانت الرؤى تتراقص أمامه .. سأل في فتور :

– أين أنا ؟

– لا يهم ما دمت بخير .

قالت الممرضة ذلك وهي تصلح غطاءه بينما بدأ هو رحلة لا يعلم مداها مع ذاكرته .. بدأت الرؤى تتضحح له رويداً ، رويداً.. فرك عينيه بقوة وهو يغالب الالم ، تطلع حوله وجال ببصره في طول الغرفة وعرضها .. فجأة توقفت الرحلة وتجمدت ذاكرته :

« سرر بيضاء ، ومرضى يئنون .. حسناً » ! !

تطلع إلى ساقه لحظة بينما كانت علامات استفهام كبيرة ترقص في ذهنه .. نظر إلى جاره الذي تململ تحت اغطيته .

ثم فكر :

« ولكن كيف ، ومتى ، ولماذا ؟ »

حاول أن يستأنف رحلته من جديد .

« أوه .. ظلالها تطارده من جديد .. حسناً » :

« اذا كان اليوم هو الاثنين حسب ما يقول هذا التقويم المعلق هنا ، فإنني امس الاحد كنت عائداً إلى بيتي في حوالي الثانية بعد الظهر » .

ثم توقف تفكيره لحظة ، ولكن سرعان ما لمع في ذهنه الحادث كمثل شرارة :

« قبل ذلك بلحظات سمعت بوق سيارة في المنعطف المقابل .. زمرت مرتين ، وأنا اقترب من المنعطف .. فجأة خرجت السيارة الاخرى كالسهم ، برمنا معاً في وسط الشارع .. مرت لحظة حادة ، ثم كان صوت ارتطام هائل .. ثم ماذا ؟

سائل دافئ كان يتدفق بغزارة تحت قدمي . ثم ماذا ؟ »

وتوقف تفكيره مرة اخرى ، لم يعد يذكر شيئاً بعد ذلك .. ضغط على صدغيه بقوة .. هز رأسه .. نظر إلى جاره الذي كان يتمطى وسط سريره . فكر :

« ترى اي نوع هو من الناس .. ملامحه من ذلك النوع الغامض الذي لا ينم عن أي شيء » ! !

هل يقول له صباح الخير ؟

فكر لحظة :

« واجب برضه » :

– صباح الخير ..

ونزع ابتسامة حزينة من خلال الالم ، فبدت غريبة على شفتيه ..

– صباح النور .. كيف أنت اليوم ؟

« يبدو أنه انسان مهذب » ! !

كذلك فكر قبل أن يرد :

– اوه .. لا ادري !

ضحك جاره بفتور ..

« ترى ما الذي يضحكه !؟ »

سأله باستغراب :

– ما الذي يضحكك ؟

– لا شيء ، وعليك ان تهدأ الآن :

« هذا المغفل ، هل يظنني طفلاً ؟ !

– شكراً ..

ثم أضاف :

– قل لي .. هل زارني احد هنا امس ؟ !

– لا .. هل كنت تتوقع احداً ؟

« سؤال سخيف . ومع ذلك سأرد عليه » :

– لا ! !

– ولماذا سألت اذن ؟ !

« أوه .. انه يفتح معي محضراً للتحقيق » :

– مجرد سؤال !

تناول جاره « الترمس » الذي أمامه وصب فنجانين من القهوة .. وناوله فنجاناً :

– خذ .. القهوة تهدئ الأعصاب .

« لا بد أن أضع حداً لتصرفات هذا الـ . ولكن »

تناول الفنجان وهو يقول :

– ومن قال لك انني في حالة هياج ؟

– ليس تماماً .. ولكن يحتاج المرء إلى شيء من العطف في مثل هذه الحالات ! !

« انه يقول العطف .. حسناً » :

– وأنت تعطف عليّ الآن . اليس كذلك ؟ !

– ليس بهذا المعنى تماماً ! !

« هذا الرجل يحيرني .. انه شخصية غريبة فيما يبدو » .

– يبدو انك انسان رائع ! ؟

ثم أضاف :

– حتى الآن على الأقل ! !

– لا يحسن ان نتسرع في اصدار الأحكام ! !

« هذه فلتة من فلتاته » ! :

– ليس هذا قراراً اخيراً على اية حال !

– هذا افضل ! !

ثم أضاف :

– ولكن قل لي .. اين تعمل ؟ !

« عادت الاسئلة السخيفة من جديد .. لا بأس » :
رشف رشفتين من فنجانه وهو يقول :
– قبل اسبوع فقط نزلت من باخرة كنت اعمل فيها ..
– والآن ؟ !
« كم هو فضولي .. حسناً » :
– تركت البحر ، بعد ثلاث سنوات طفت خلالها انحاء العالم ..
– لماذا ؟ !
« وهذا محضر آخر » :
– وما الذي يدهشك ؟
– اعني لماذا تركت البحر ؟
« فضول سخيف » :
– حين بدأت عملي في البحر .. كان هدفي أن اهرب ! ! ..
– من ماذا ؟ !
– من الحياة ، والناس ، وحتى من نفسي ، ومن « ظلالها » أيضاً ! !
– لا بد أنك ارتكبت جريمة ؟
– لماذا تتحدث هكذا بوقاحة ؟
– لا بأس .. لماذا هربت .. اظن هذا سؤال منطقي ؟ !
« وبارد ايضاً » ! !
صمت لحظة يفكر .. قال بدون ان يلتفت اليه :

– آخر لقاء كان بيننا ، اذكره مثل هذه اللحظة .. مثل « ظلالها » التي تطاردني صباح مساء .. وقتها توسلت إلى أن لا انفذ قراري .

قاطعه بدهشة :

– من هي ؟ !

– أوه ، لا تكثر من اسئلتك السخيفة ! !

– حسناً .. وبعد ؟ !

– لم يكن يهمني لحظتئذ ما يمكن ان يترتب على ذلك القرار .

قال ذلك واعتدل في جلسته .. استحثه جاره في ضيق :

– أي قرار ؟ !

« ها هو يسأل من جديد .. لا بد من اسكاته » :

– حيوان ! !

« هذا افضل لعله يرتدع »

– أنا ؟ !

– قلت لك .. انني اتخذت قراراً ما ، وهذا يكفي ! !

– لكنك لم تقل لي ما هو ذلك القرار ؟ !

« هه .. ويحتج ايضا » ! !

– اخرس ! !

– حسناً . خرست ، وبعد ؟

– لا شيء ! !

« ما أبرده ! ! » :

– سخيف .. كنت اظنك انساناً :

« هه .. ههه ، ويشتمني ، ههه »

– ليس تماماً ! !

– وحتى الآن لم تقل لي فحوى ذلك القرار ؟ !

– قلت لك اخرس ! !

ثم اضاف :

– سأقول لك .. اشعل لي هذه السيجارة ..

أخرج عود ثقاب ، وأشعله ، أطفأ هو عود الثقاب من خلال الدخان الكثيف وجذب نفساً طويلاً نفثه في الهواء ثم قال :

– وقتها كنت مشدوداً إلى الخارج .

– تعني خارج البلد ؟

– لا ..

– خارج بيتك اذن ؟

– لا .. اقصد خارج ذاتي ! !

– نتيجة سخيفة ! !

« ههه .. ههه حسناً » :

– ربما ، ولكنها نتيجة على أي الأحوال .

صب جاره فنجانين من الشاي هذه المرة وناوله فنجاناً .. رشف منه رشفة ثم أضاف :

– من المحزن دائماً أن لا تكون هناك نتيجة ! !

– وبعد ؟ !

لاحقه السؤال الملح من جديد ..

– قلت لها انت مجنونة ! !

قال بلهفة :

– صفعتك على وجهك طبعاً ؟ !

« توقع بليد » ! !

– لا .. بل ضحكت من خلال الدموع ..

– وضحكت أنت لتلطيف الجو ؟ !

– لا .. بل صفعتها ! !

– حقير ! !

« اخص ! ! » :

– احياناً يكون المرء كذلك ! !

– هه .. غضبت هي طبعاً وغادرت المكان ؟

– لا ، بل انخرطت في البكاء .

– حقير !

« مرة أخرى يشتمني .. حسناً ! ! »

صمت لحظة يفكر ، لاحقه السؤال من جديد :

– وبعد ؟

– ساقي تؤلمني .

– اشرب فنجانك .. نكهة الشاي هنا رائعة برغم رائحة المرض الخانقة .. اشرب .. اشرب ، ولتذهب كل همومنا إلى الجحيم !

« انه بدأ يدخل حظيرة الانسانية هه ، هه .. همومنا حسناً » :

– كم الساعة الآن .. ؟

– ربما العاشرة ..

– الهدوء هنا رائع لولا الأنين الآتي من العنبر المواجه لنا ، ولكن ما لنا وللساعة الآن .. منذ متى وأنت هنا ؟ !

« أنا الذي سألت هذه المرة »

– منذ ثلاثة أيام .

– هل تشعر أنك في تحسن ؟

– ليس بعد !

– تستاهل !

« ههه .. قطعاً لم يكن يتوقع هذه .. حسناً »

– وأنت ؟

« مجاملة لا بأس بها .. » :

– سخيف ، ألا ترى هذا الجبس الذي انتعله ؟

– آسف .

« هذا أفضل » ..

– والآن ، دعنا فيما كنا بصدده ، هه ، قلت انها انخرطت في البكاء » وبعد ؟

– وقتئذ كان المكان خالياً .

– الا من الشيطان طبعاً .. وبعد ؟

– مددت يدي ، وتناولت يدها .

– وسحبت هي يدها على الفور طبعاً :

« يا للمسكين » ! ! :

– لا .. بل أبقتها في يدي !

– مسكينة . وضغطت انت عليها بالتأكيد ؟

« هه ، هكذا يغازل النساء .. اسلوب سخيف » :

– لا . كانت قد سحبتها قبل أن أفعل !

– اخص !

– وحاولت اعادة يدها إلى يدك من جديد بالطبع ؟

« هكذا بسرعة .. مراهق كبير » :

– لا . انتابني شعور بالخجل فطأطأت رأسي في صمت !

– جبان !

« يبدو أنه من النوع الذي يتسرع في الأمور دائماً » :

– قالت لي : انتبه لنفسك .. احسست كأنني طفل كبير .. انتابني شعور بالقهر . دار بذهني خاطر وحشي ترددت فيه طويلاً .. كدت أصفعها من جديد ..

توقف لحظة ، ثم تناول فنجانه ورشف منه عدة رشفات متتالية ووضع الفنجان وهو يقول :

– لقد برد الشاي ايها السيد ..

واستدرك :

– ولكن لم تقل لي ما اسمك ؟

– احمد .. وأنت ؟

– حسن .

– اهلاً وسهلاً .

– فرصة .

قاطعه هو قبل أن يكمل :

– ولكنها غير سعيدة .

– لا يهم .. وبعد ؟ !

– مددت يدي لاستعيد يدها .

– تركتها لك طبعاً .

– لا . بل صفعتني ! !

– تستاهل برضه !

– لم آبه بهذا طبعاً .. فأنت لا تعرف المرأة .. مرة اخرى جمعت كل شجاعتي ومددت يدي من جديد .

– وتناولت يدها طبعاً ؟

– لا .. بل وضعت يدي على كتفيها ، كانا مستديرين .. ولن تستطيع ان تتصور مدى السعادة التي غمرتني وقتئذ ، همست اليها :

– انني .. انني .

قاطعه هو :

– احبك ، اليس هذا ما قلته لها ؟

– لا ..

– ماذا قلت لها اذن ؟

– قلت لها : انني معجب بك !

– بارد سخيف !

– كان حديثنا عذباً في تلك اللحظة ..

– هذا رائع .. وبعد ؟

– لمحت في عينيها شبه تأنيب يتبدى من خلال الرغبة في صعوبة .

– هه .. وبعد ؟

– تراخت يدي ، وانتابني حياء شديد ، فطأطأت رأسي وأنا اتنفس الصعداء .

صرخ زميله :

– اخص .. اخص . جبان .. جبان !!

ثم صمت .. مرت لحظات مملة ، فجأة قال زميله :

– لا يسع المرء احيانا الا ان يقف حائراً امام بعض الامور !

قال بدون ان يلتفت :

– ولكن يظل البحث عن حل ما قائماً على الدوام !

– انني افكر بالهرب من هنا .. ما رأيك ؟

– احترم رغبتك كحرية فقط !

– ماذا تعني ؟

– اعني لا احترمها كرغبة ..

– انت غريب الأطوار .

– ربما .

– فكرة الهرب تدور في رأسي منذ الامس ..

– جبان ! !

– ولماذا اكون شجاعاً ؟

وصمت الاثنان ، عاد هو بذاكرته إلى الوراء :

« يومئذ سحقت نظرة التأنيب المتعبة في عينيها رغبتي فتراخت يدي .. تذكرت اول لقاء بيننا ، كان ذلك في بيت احد الاقارب .. اعجبت بها ، ومع ذلك لم المح وقتئذ ذلك النداء المتواضع الذي يتوقد في عينيها .. مرة قالت لي :

– ان وجودها بجانبي يشيع في نفسها الطمأنينة . وقلت لها كلاماً كثيراً وقالت هي كلاماً أبهجني حتى العظم .. بيد انني جرؤت في ذلك اليوم على تصعيد مشاعري وترجمتها إلى واقع مثير .. استيقظت من حلم لذيذ وانا المح تلك النظرة التي ذكرتني بنظرة لأمي اعرفها حين تريد أن تقول لي شيئاً لا يجب ان يعرفه الآخرون ، وتراخت يدي ، فطأطأت رأسي في حياء شديد وأنا انتفس الصعداء » .

– اخص .. اخص ! !

نظر إلى جاره :

– هل لازلت تفكر في الهرب ؟

– بلى ! !

– حسناً .. ولماذا الهرب ، قل لهم انك سترحل ؟

– لقد رفضوا !

– وهذا من حقهم !

– وحقي انا من يحترمه ؟

– لا حق لك .. لا تكن حيواناً ! !

ترك زميله .. وسرح من جديد ! :

« قالت لي :

– وزوجتك .. هل علمت ؟ !

– ربما ..

قالت في صوت فاتر :

– لا يهم ، ما دمت بجانبي ..

سألت نفسي :

– والنهاية .. اين سترسو ؟

هي قالت :

– لا افكر فيها ، ما دمت اعيش يومي سعيدة ! !

– والنهاية ؟

«كان سؤالاً حائراً يلاحقني مثل ظلالها في كل لحظة ، تشاجرت مع زوجتي في ذلك الصباح كالعادة ولأول مرة فكرت في اتخاذ قرار ما » ! :

– وولدك ؟

– ليس مشكلة .

« فكرت ، لماذا اعيش في هذا الجحيم ، لم تكن هذه هي اول مرة اسأل نفسي فيها مثل هذا السؤال ، بيد انه لم يكن يثير

في نفسي أي رد فعل » .

- « لماذا اعيش في هذا الجحيم » ؟

ازداد السؤال حدة .. عدت إلى البيت ، كان اصراري باستعادة حريتي قد بلغ حداً لا تجدي معه اية مساومة .. سحبت ورقة وكتبت عليها سطراً واحداً وخرجت .. ووقتئذ لفحني هواء منعش .. تنفست الصعداء .. أحسست بنشوة بالغة .. سمعت نشيجها في الداخل ، وأنا أرد الباب ، مشيت خطوات بدون ان التفت .. كان في نيتي أن أقيم حفلة بهذه المناسبة .. وصعد إلى ذهني سؤال :

- ولكن لماذا تبكي ؟ اكثر من مرة تمنت لو لم تكن زوجة لي ، اكثر من مرة رغبت في ان ننفصل .. لماذا ، لماذا تبكي ، التفت إلى جاره :

- وأنت هل تعيش حريتك كاملة ؟

- سؤال طريف حقاً .. كيف اعيشها وانا اكاد اختنق هنا ؟

- هذا معنى الحرية في نظرك .. كم هو تافه ؟

وانقلب على الحائط :

« أول شيء تمنيته لحظتئذ هو أن ... » .

- وانت هل تعيشها كاملة ؟

سأله جاره في برود !

- لا ادري .. ربما ! !

صمت صاحبه بينما عاد هو إلى ذكرياته :

« شدني الشوق اليها .. كان الوقت مساء .. والتقينا من جديد »

– على فكرة ، لم تقل لي ماذا حدث بعدئذ : « اخص اخص » ..

ونهض جاره وتقرفص من جديد في وسط سريره ..

« ماذا أقول له .. حسنا » :

– طلقت زوجتي ! !

– تلك التي كنت تتحدث عنها .. هل تزوجتها ؟

– لا .. اعني زوجتي ! !

– وتلك من تكون اذن ؟

– كانت علاقة مجنونة ! !

– وبعد ؟

– تركتُها تبكي وخرجت .. وفجأة احسست بأنني في حاجة اليها ..

– إلى زوجتك ! ؟

– لا .. إلى الأخرى ..

كان الوقت مساء ، لم اقل لها ما حدث كانت تعلم مدى ما وصلت اليه علاقتي بزوجتي ، اغرورقت عيناي بالدموع بفعل الراحة المترفة التي غمرتني في تلك اللحظة ، وبكت هي ..

قلت لها :

– انت قدري !

وأنت !

كذلك قالت بينما كان نفس ذلك الشيء يتوهج في عينيها . وقتئذ جف حلقي .. تحدثنا طويلاً .. كان حديثها عذباً .. قلت لها كلاماً كثيراً ، وقالت هي كلاماً ابهجني حتى العظم ، مضت فترة لم نحس بها .. وساد المكان صمت حزين .. وفي اقصى الغرفة جلست اغسل الفراغ وأحاول أن اجد نفسي .. قالت في صوت فاتر :

– ألا زلت مصمماً على الرحيل ؟

– (...)

لم اقل شيئاً ، احسست بالدنيا تدور من حولي كأنما كنت لحظتئذ خارجها تماماً ، بكت هي تذكرت زوجتي التي تركتها تنشج في الداخل بحرارة وترثي حريتها ، ولأول مرة بصقت على حريتي ، كانت تعلم انني قررت الرحيل ، نهضت هي .. تقدمت نحوي بخطى متعبة ، وضعت يديها على كتفي وتحدثت من خلال الدموع توسلت إليّ أن لا انفذ قراري ، قلت لها :

– لقد تأخرت كثيراً ! !

كنت قد صممت على الرحيل .

– وماذا بشأنها ؟

سأل زميله .

– تركتها تبكي في الداخل .. كزوجتي تماماً .. كنت قد عفت ذاتي .. كنت أريد أن أهرب من الدنيا والناس ، وحتى من

نفسي ، وأن أعيش ، أو لا أعيش ، كان الأمر سيان عندي .. ذابت فواصل الأشياء في نظري وتساوت كل الأمور . في صباح اليوم التالي خرجت مبكراً ، كان الضباب كثيفاً وقتئذ ، وكانت ظلالها تطاردني .. حملت اوراقي وحقائبي وصعدت درجات احدى البواخر .. كان كل شيء رطباً ولزجاً .. تصاعدت إلى انفي رائحة البحر بكل تناقضاتها وفي غرفة صغيرة تمددت على سرير متأرجح فيما كانت الباخرة تقلع إلى ميناء جديد !

الجرح والسكين

الجرح والسكين

« ... الأزمنة لا تهم عندما نغرق في أبعاد الحدث .. ههه .. ههه ! ! » .

وارتخى صوته العريض في الغرفة الصغيرة : «ربما كان على حق .. لكنه مع ذلك بدا بارداً ، وهو يدفن رأسه بين أوراقه المبعثرة .. بصق بمرارة وهو يعبر دهاليز وممرات الشركة المعتمة ... كان يحاول أن يداري اضطرابه .. أطرافه كانت باردة .. ضربات الآلة الكاتبة استقبلته رشيقة تتلاحق على الورق في همس رقيق مثل زخ المطر .. توقف لحظة عند باب الغرفة قبل أن يدلف إلى الداخل ... أطل صاحبه حالما فتح الباب ، وحياه في ابتسامة خبيثة .. تناول هو مقعداً قريباً ، وجلس في تخاذل .. عطرها كان يتسلق الجدران عبر النافذة المطلة على الغرفة المجاورة ... أشعل لفافة ، ونفث دخانها في الهواء بصمت : «منظرها أمس كان رائعاً ! ! » أحس بالغرفة الصغيرة تضيق ، وتضيق من حوله ... الآلة الكاتبة لا تفتأ تتساقط حروفها على الورق في خفة .. تمثل أناملها الصغيرة تتحرك رشيقة ، كأطراف راقصة إسبانية على موسيقى الفلمنكو .. كانت أعصابه تزداد توتراً .. دخان التبغ ،

ورطوبة المكيف يأخذان بخناقه : «شعرها المعقوص إلى الخلف يتدلى على ظهرها كذيل مهرة جموح ! !» .. بقي برهة يسترجع الصورة في ذهنه : «عيناها كانتا تشعان بالحنان .. الأزمنة لا تهم عندما نغرق في أبعاد الحدث . كم هو بارد .. الماضي ، والحاضر ، وحتى الغد ، أزمنة تذوب في عمق اللحظة ، وكأنه لا شمس تشرق ، أو تغيب !! » . توقف تفكيره لحظة .. وبقي يحدق في الفراغ .. كان يبحث عن نفسه كمن ضاع منذ زمن طويل : «نحن تروس صدئة في عجلة الحياة العملاقة التي تدور ، ربما بدون أن تحس بوجودنا .. ههه .. ههه .. براغ صدئة .. تفي .. اخص علينا يا دنيا .. اخص .. ثم نهتز عند أول بادرة ، ونسقط أمام مشاعرنا .. ههه .. ههه» ! ! واهتز فجأة حين أحس بضحكته ندت عن دائرة تداعيه الصامت .. زم شفتيه بسرعة ، وهو يتلفت حوله : «اللعنة .. كيف أفلتت ! ؟» .. انتبه إليه صاحبه ، فرفع رأسه عن أوراقه في دهشة :

– اراهن أنك لست في هذه الغرفة .. ههه .. ههه .. ولكن قل لي بحق السماء .. فيم تفكر .. هه ! ؟

واخترق صوته المشروخ جدار الصمت المرتخي بعرض الغرفة .. قال ، في ضحكة مصطنعة ، وقد فاجأته الملاحظة :

– ههه .. أوه .. لا شيء على وجه التحديد .. الإنسان لم يعد يفكر بتركيز في هذا العصر .. ههه .. ههه .. لا بد أنك توافقني على هذا الرأي .. أليس كذلك !؟

وماتت الكلمات على شفتيه ، بينما كان يبتلع ريقه : « الله يكسفك يا شيخ .. » قال صاحبه في برود :

– ربما كان هذا صحيحاً .. ولكنه لا يعني أننا لا نفكر ..

كان هو قد سرح بعيداً .. ضربات الآلة الكاتبة تزيد من توتره .. تمثل أناملها الرشيقة تلاحق حروفها التي راحت تتلاحق مثل زخ المطر : «شعرها المعقوص إلى الخلف يتدلى على ظهرها كذيل مهرة جموح ! ! » .

– ماذا قالت صحف اليوم !؟

« اللعنة ! ! » مرة أخرى مزق صوته المشروخ صمته :

– لا تزال فضيحة « ووتر جيت » تتصدر صفحاتها ..

قالها بسرعة ، وهو يحاول اختصار الحوار : «صوتها كان ينضح بأنوثة ثائرة .. » صوته العريض قطع حبل أفكاره من جديد .. قال في خبث :

– أراهن أنك تفكر الآن بطريقة بائسة .. ثم غمز بعينيه ، وهو يبتسم في برود .. ضاق هو من مسلكه : « لم أقل لها أي شيء .. الصمت دائماً أفضل شفرة لتبادل المشاعر .. أحاسيسنا تخترق جوانحنا بدون أن ندري .. » صاحبه رفع رأسه المدفون في أوراقه ، وهو يقول :

– ولكن .. قل لي .. كيف حدثت هذه المعجزة !؟

« يا لفضوله ! ! » .

– ربما ليس بهذا المعنى تماماً .. لكن شيئاً ما ، يدور في

أعماقي بشأنها الآن !!

– هل قلت لها !؟

« أوه .. انه يصر على دس أنفه .. » :

– لم أفكر في شيء كهذا حتى الآن ..

ابتلع ريقه وهو يفرك أطرافه التي ازدادت برودة : « شعرها المعقوص إلى الخلف يتدلى على ظهرها كذيل مهرة جموح .. » الآلة الكاتبة لا تفتأ تتساقط حروفها في همس كمثل زخ المطر .. صوته المشروخ لاحقه من جديد ..

– لماذا .. ! ؟

– ربما لأنني أفضل الصمت لغة مأمونة العواقب .. فلعل في ذلك ما يسمو بانسانيتي ! !

– إنسانيتك !؟.. ههه .. ههه .. ماذا تعني !؟

« سؤال سخيف .. » .

– من الصعب على الإنسان أن يواجه خسارة في مجال الشعور.. ما رأيك !؟

– ألم تقل انها ..

وقاطعه هو :

– افهمني ، ولا تكن حيواناً !!

– لقد قلت لي انها .

ولم يدعه يكمل :

– قلت لك كان ذلك مجرد ظرف فرضه مكان وزمان محددان . .

– أوه .. الأزمنة والأمكنة لا تهم .. ألم أقل لك هذا .. !؟
– ولكن من الجائز أيضاً أن تكون قد خططت اتجاهاً ما ! !
– والاتجاهات كذلك لا تهم .. فقد نعيد النظر في أشيائنا حالما تعمر وجداناتنا برؤى جديدة ..

– اسمع انك تحاول اغتيال ذكائي لتشكيكي في مقدرتي على معالجة أموري بوضوح .. ضحك صاحبه .. وعاد هو يغرق في صمته من جديد : «لم أقل لها شيئاً .. المشاعر تخترق جوانحنا كالاشعة .. هيه .. هيه .. الصمت – دائماً – أفضل شفرة لتبادل أشيائنا الحميمة جداً .. وأحياناً السخيفة جداً .. عيناها كانتا تشعان بالحنان .. » .. اهتز رسمها الانبق في خاطره .. قد يقول لها ذلك بأسلوب ما ، ولكن .. أوه .. صوتها المفعم بالأنوثة يوقظ في صدره (غابة رجال) .. كان دخان لفائفه يدور فوق رأسه في حلقات : «حزن عينيها يتلف كل ذكرياتي .. اللعنة .. كان ينظر إليّ بعينين مشفقتين .. لماذا .. برغي صدئ في عجلة الحياة .. هيه .. هيه .. تفي عليك يا دنيا .. أخص .. ونهتز عند أول بادرة ، لنسقط أمام مشاعرنا .. هيه .. الاتجاهات لا تهم .. ربما .. هيه» وظلت أعصابه تحترق .. ضربات الآلة تشعره بوجودها المثير يتسلق الجدران ، مع حزم الضوء المتساقط لينتشر عبر النافذة : «ماذا قالت صحف الصباح ! ؟» عبارة نزلت كمثل ستارة على أفكاره : «اللعنة .. فضيحة «ووترجيت .. » لا تزال تتصدر صفحاتها .. هذا هو موجز الصباح يا سيدي .. هل فهمت !؟» .

كانت ضحكته ذات الشروخ العريضة تعبئ الغرفة .. وكان هو في رحلة مع الخيال : «سأقول لها ذلك حالما أجد الأسلوب الذي يوجز مشاعري بسرعة ! ! » .

* * *

يومئذ كان الوقت ظهراً : « أوف حر .. » .. سحب عدداً من مناديل الورق ، وهو يهبط من سيارته الملتهبة بأشعة الشمس .. ذو بها في عرقه المحمل بالرطوبة المالحة . وألقى بها بعيداً .. أطرافه كانت باردة .. انتفض جسمه قبل أن يدلف إلى الداخل « جبان » ، واهتز رسمها في خاطره ، وفي ركن الغرفة الصغيرة قبع على نفس المقعد .. كان يستبسل ليداري اضطرابه .. ضغط على أسنانه : « لا شيء يهم ! ! » .. ضربات الآلة الكاتبة المتلاحقة ، استقبلته في الخارج .. أحس براحة كبيرة .. حين صافحه صاحبه ، كان يغمز بعينيه في خبث : « يا لفضوله ! » .. صوته المشروخ انطلق دفعة واحدة ..

– هه . ما أخبارك .. أراهن أن نبضك اليوم على درجة عالية .. !؟

وابتسم في خبث : « سخيف .. » .

– أوه .. نبضي أنا ! أبداً .. ولماذا .. !؟

ضحك صاحبه ..

– أحس هو بأن كذبه كان واضحاً : « أوه .. ليذهب إلى الجحيم .. » عاد صوته يلاحقه :

– ولم كل هذا الاضطراب !؟

« لقد كشفه .. يا لخبثه ! ! » .. ولكنه سيكابر حتى النهاية ..

– أنا !؟ لا .. ولماذا اضطرب !؟

مرة أخرى أحس بأن كذبه كان واضحاً .. تقلص وجهه ، وطرفت عيناه ، بينما صعدت دماؤه حارة إلى خديه .. شعر مضيفه بما أصابه .. كان العرق يغسل وجهه بوضوح برغم برودة الغرفة .. وسرعان ما اختلق سبباً وانسحب مشفقاً عليه : « لكن على من ! ؟ » لقد فهمها : « كتمت نفسي .. الله يكسفك .. » تنفس الصعداء ، وعادت دماؤه تجري دافئة في عروقه برغم حزنه على وضعه الجديد : « لا شيء يهم .. » .. عطرها كان يتسلق الجدران عبر النافذة ليغرقه في حلم مثير .. ضربات الآلة لا تزال تتلاحق في خفة : « لا شيء يهم » ... لكنه سرعان ما أدرك كذبه حالما أطلت هي عبر النافذة : « يا للسماء ! ! » .. حدق في عينيها ، وغرق في حزنهما : « صوتها المفعم بالأنوثة يوقظ في صدره (غابة رجال) .. عيناها كانتا تشعان بالحنان .. » نهض واقفاً دفعة واحدة : « يا لسطوتها .. » وحين صافحته كاد يحتفظ بيدها الصغيرة في راحته ، لكنه سرعان ما أطلقها على الفور : « جبان ! ! » سأقول لها حالما أجد الأسلوب الذي يوجز مشاعري بسرعة .. قال ، وهو يحرر يدها في بطء شديد :

– ... لقد أنجزت قصة جديدة أمس ، وأنا حائر في وضع عنوان لها .. ما رأيك في عنوان مناسب تقترحينه لها .. أؤكد أنك ستنجحين ، قالها دفعة واحدة ، وتنفس الصعداء ..

فوجئت هي .. قالت بدهشة :

– أنا .. !؟

– ولم الغرابة !؟

وأحس بكذبه : «حقاً .. ما المناسبة .. صحيح أنها تعرف هذه الموهبة فيه ، وقد أبدت إعجابها بأكثر من قصة له .. ولكن .. أوه .. لا شيء يهم .. » قالت والدهشة في عينيها :

– لا أدري .. ولكن ما دخلي أنا بالموضوع !؟

«الخبيثة .. انها تحاول الهرب عن دائرة مشاعري» : (أنت الموضوع واللاموضوع .. أنت البداية التي لم تنته ، والنهاية التي لم تبدأ .. أنت الجرح والسكين ..) .. وشعر بحماس يجتاحه .. قال ، وهو يفرك يديه :

– ههه .. صدقيني انك ستنجحين .. فقط حاولي ..

– بدون أن أعرف حوادثها !؟

وارتجفت شفتاه ، وهو يقول :

– حسناً .. سأوجزها لك حالاً :

– انها قصة عاطفية .. توقف بطلها فجأة يتلفت حوله ذات يوم .. كان عطرها يتسلق الجدران ليغرق الغرفة المجاورة في حلم مثير ... وضربات آلة كاتبة كانت تتلاحق في همس كمثل زخ المطر .. شعرها كان يتدلى على ظهرها كذيل مهرة جموح ... وكان هو يعتزل العالم في ركن الغرفة الصغيرة ، ليرى ويسمع ، ويرتاح في حنان عينيها بصمت !! » .

طرفت عيناها ، وهي تصغي إليه في اهتمام .. بينما واصل هو :
« في ذلك اليوم ، عاد مبتهجاً آخر النهار .. ثم بدأ يروح ، ويجيء وقتما تجوع أعماقه ليغرق في حزن عينيها من جديد ! ! » .

تبسمت وهي تطأطئ رأسها في حياء .. خداها بدآ يشتعلان بحمرة قانية .. قالت ، وهي تعض اصبعها في خفر :

- « ولكن لماذا لم يقل لها !؟ » .

« انها تتغابى .. أم هي تسحب لساني ! ! اللعنة .. حسناً .. سأواصل .. سأتغابى أنا الآخر أيضاً !؟ » .

- أوه .. لا أدري .. لعله كان يفضل أن يحترق في صمت .. بعض هذا الاحتراق لذيذ .. أليس كذلك ! ! وأطرقت هي لحظة : « لم تتوقع هذا المنعطف الجديد .. » قالت :

- أليس من الجائز أن تستجيب !؟

« أهي لعبة جديدة ! ؟ الرحمة يا إلهي .. ! ! » :

- ويجوز العكس .. أليس كذلك !؟

- ربما .. ولكن لماذا نفترض الأسوأ دائماً ! ؟

« يا لها من ماكرة .. انها تراوغ بخبث .. ترى إلى أي منعطف تحاول سحبي ! ؟ سأواصل .. » .

- أوه .. الصمت دائماً أفضل شفرة لتبادل الأحاسيس .. ان مشاعرنا تخترق الجوانح كالأشعة ! !

- اسمح لي أن أقول لك ان بطلك هذا جبان ! !

« ماذا .. يا لهواني » فوجئ هو بالنتيجة « جبان !؟ .. لا ..

هذا كثير ! ! » فكر لحظة : «ولكن لا بأس .. لا شيء يهم .. انها تحاول استفزازي .. ولكنني لن أتيح لها هذه المتعة .. » .

كانت تسترق إليه النظر من تحت أهدابها ..

– اسمح لي أن أقول لك ان بطلك هذا جبان ! !

وانثنت وهي تبتسم في خبث برغم الحمرة التي ألهبت خديها .. عيناها كانتا تضحكان هذه المرة في حنان .. صوتها كان ينضح بالأنوثة .

– ربما ليس كما تتصورين .. ولكنه سيقول لها ذات يوم حالما يجد الأسلوب الذي يوجز مشاعره بسرعة ! !

قال ذلك ، وهو يحدق في عينيها .. قالت :

– بسرعة !؟

وضغطت على الكلمة كأنها تحاول التأكد ممَّا تعنيه ..

ثم أضافت :

– ولماذا السرعة !؟

– لا أدري .. ربما لأنه يحب أن يوجز كل أموره بسرعة ..

– ولكن المشاعر لا توجز لأننا لا نملك تكييفها ..

فوجئ بجوابها قال بإعجاب :

– اسمعي .. أنت تبدين مذهلة الآن ..

وأحس بأن لسانه يقوده إلى مشارف الاستسلام .. تراجع على الفور فأضاف :

– ذلك .. حين تصبح مشاعر حقيقية بالفعل ..

دخل صاحبه يتقدمه صوته العريض :

أوف .. طقس هذا اليوم رديء في الخارج ..

ورفع قبة ثوبه يحركها في ضيق .. كانت هي قد توارت .. وانزوى هو في ركنه يلهث : « كانت مهمة شاقة ! ! » .. فجأة أحس بجرحه يستكين ، وتهدأ السكين .. وفي الغرفة المجاورة كانت الآلة الكاتبة قد بدأت حروفها تتدفق مثل زخ المطر ..

عـاد الصمت يرتخي في عرض الغرفـة ، وتداخلت الأزمنة لتذوب في عمق الحدث ، بينما كان هو يبحث عن نفسه من جديد .. ! !



شرخ في فراغ



شرخ في فراغ

تحسست جيبي بحركة آلية لأطمئن على مفاتيحي .. يبدو انني افعل ذلك كلما غادرت مكتبي .. وقتئذ كنت اهبط درجات السلم المتلوي عبر طابقين بسرعة كبيرة .. نسيت اين أوقفت سيارتي .. وقفت اجيل نظري على طول الرصيف المواجه .. تذكرت صوتها الحزين المرتجف كأنه آت من كوكب لا وجود له على خارطة الفضاء .. بعد فترة طويلة عادت فجأة لتقول لي : « كان ذلك خطأنا معاً .. » قلت لها : « لم يكن بيدينا » .. وافقت هي على تبريري هذا باستسلام .. بوق سيارة مزق سكون اللحظة المفعمة بالانقباض .. صفارة اسعاف انطلقت فجأة من منحنى الشارع المقابل : « لابد انه يلفظ انفاسه الآن .. بودي لو اعرف كيف يموت الانسان ، بدون أن امارس الموت .. نحن لانشعر بالألم إلا عندما نمارسه فعلا .. ! ! » . . عدت ابحث عن سيارتي .. اجتاحني فراغ قاتل ، وانا احاول أن اعبر الطريق المكتظ بالسيارات ..

تقدمت خطوتين ، وانا اتلفت في اتجاهين .. مرت سيارة ،

واخرى ، وثالثة : « .. هذه مسألة لاتطاق .. » نفد صبري ..
قفزت إلى منتصف الطريق .. فرملة حادة انطلق صريرها فجأة ..
اخرج السائق رأسه ، وقال شيئاً .. لا ادري ما هو .. لم اعره أي
اهتمام : « ماذا اذن .. هل اقف هنا حتى الصباح ! ؟ » .. قفزت
مرة اخرى خطوات إلى الطرف الآخر .. قذفتني السيارات بوابل
من ابواقها المتنوعة .. : « لايهم ! ! » .. اكثر من سائق اخرج
رأسه يتطلع إليّ في احتجاج صامت .. : « لا يهم .. هل اقف
هنا حتى الصباح ! ؟ » .. ازداد حجم الفراغ من حولي .. احسست
بأنني اغرق فيه حتى اذني ..كنت أحاول ان اجد سيارتي بين
صفوف السيارات المتراصة على الرصيف المقابل : « الجو حار
هذه الليلة ! ! » انزلقت نظارتي على ارنبة انفي .. اعدتها الى
موضعها للمرة الـ ... لا ادري كم هي .. كانت الرطوبة المحملة
بالملوحة قد بدأت تتساقط منذ لحظات .. تطلعت الى معصمي
لأعرف الوقت .. اكتشفت بأنني لا أحمل ساعة .. يبدو أنني
افعل ذلك كلما عدت الى داخل الزمن : « الفراغ شيء .. برغم
انه ليس شيئاً على الاطلاق ، ولو لم يكن شيئاً ، لما كان هناك
موضع لشيء .. ! ! » .. بدت لي العبارة منطقية .. انفتحت
في ذهني كوة سحيقة تداعت اليها كل افكاري بحيث لم اعد
استطيع التركيز ... احسست فجأة بأنني في حاجة إلى أن اصرخ ..
طردت الفكرة من ذهني حالما ادركت سخفها .. فجأة وقعت
عيناي على سيارتي : « غريبة ! ! » .. لم اصدق انني اوقفتها

حيث هي : «لا بد أن هناك خطأ ما .. لا يهم ! !» .. وقفت اتطلع اليها لحظة : «كان خطأنا معاً ! ! » .. عدت اتأمل السيارة من جديد .. كان سطحها مغموراً برطوبة لزجة : «لم يكن بيدينا .. »

.. تحسستها بطرف اصبعي : « اللعنة . ! » .. القيت بنفسي داخلها بحركة آلية .. تطلعت امامي .. كانت الرؤية منعدمة تماماً .. الزجاج الأمامي كان مغموراً بالندى أيضاً : «لماذا اخرج ذلك السائق رأسه .. لقد قال شيئاً .. لا بد انه شتمني .. ههه .. ههه .. لا يهم .. هل كان ينتظر مني أن أقف في منتصف الشارع حتى الصباح . ! ؟» نفضت الفوطة بدون فائدة .. كانت مبتلة بالندى تماماً .. ارتحت لنقاء الرؤية ، وانا ادير المحرك .. احساسي بغرقي في الفراغ كان يتكثف بصورة موحشة : « يومئذ جمعتنا الصدفة .. كيف .. اين .. لماذا ... لم اعد اذكر شيئاً .. لكنها كانت مبهجة على اية حال .. ووقتها سقطت هي في فراغي دفعة واحدة .. كانت شرخاً حاداً انتصف عالمي بقسوة .. نحن لا نختار معظم اشيائنا .. ربما الظروف هي التي تضعنا امام اختياراتنا .. لماذا . ! ؟» .. لم احاول البحث عن اجابة ما .. احسست بأنني اغرق اكثر : « لقد اصبحت حياتنا حزماً من الاسئلة المفتوحة .. ضحك صديقي حين قلت له : « انني أومن بشيئيه الفراغ ! ! » سألته : « ألسنا نضع فيه ، حتى اعز اشيائنا ! ؟ . » .. عاد يسأل بدهشة بالغة : « واين نضعها اذن . ! ؟ » .. قلت : « اذن .. هو

شيء . ! ؟ » .. سخر مني بوقاحة .. فجأة احسست بأن عالمي لم يعد بوسعه احتواء شيء ذي قيمة .. لم يبد لي انني كنت على وفاق مع افكاري وانا اصل الى تلك النتيجة .. عالمي كان مفرغاً من كل محتوى .. قال صديقي في سخرية : « لابد انك غرقت فيه ! ! » .. اجبته بالنفي : « ماذا اذن ! ؟ » .. طاردني صوته المسحوق من جديد : « اراهن انك بدأت تبحث عن نفسك كعادتك .. » .. غاظني بروده ، وسلبيته : « لماذا تصر على ممارسة جوانبك الاخرى حتى مع الآخرين . ! ؟ » فوجئ هو بهذه الملاحظة .. اجاب في اعماقه بطريقة ما ، بدت على ملامح وجهه : « انني اكاد اجن .. ما الذي تريد ان تقوله بالضبط .. هه ! ؟ » .. كان واضحاً انه يستبسل ليخفي ما يعتمل في نفسه . قلت له : « لقد اغرقت فيه اشيائي بيأس . ! ! » .. تطلع إليّ في اشفاق ، وابتسم .. قال لي : « انك تذكرني بمدرس الرياضيات العجوز .. كان يحاول ان يحشو اذهاننا بنتيجة مستحيلة للنظرية النسبيـة . ! » .. شعرت برغبة شديدة في أن اصفعه .. قلت وانا اتصنع اللامبالاة : « .. ربما ! ! » .. قال في حماس : « قطعاً .. انت لا تعني ما تقول .. قلت في برود : « وما الغرابة .. احياناً نكون كذلك ؟ ! » .. بدا لي كأنه اغتاظ من سلبيتي .. ابتسمت انا .. قال لي في يأس : « انت تفكر بصورة مشبوهة ! ! » .. تأملت عبارته لحظة : « ربما .. لأن الزوايا التي ننظر منها الى الاشياء تبدو مائلة احيانا ، ولذلك لا يمكن ان تلتقي لتشكل

مربعاً صحيحاً متساوي الأبعاد ! ! » .. ضحك هو فيما كنت اغرق انا اكثر : « لماذا يفقد الانسان احساسه بوجوده احياناً .. اللعنة .. » .. لم افكر في اتجاهي حين بدأت السير قبل لحظات .. لكنني كنت اسير وفق النظام تماماً حتى هذه اللحظة .. ربما بحكم العادة .. فجأة احمرت الاشارة عند ملتقى عدد من الطرق .. كدت اعبرها .. وقفت عند منتصف التقاطع ... نظر إليّ الجندي بأدب بالغ : « لابد انه يحاول قراءة افكاري .. » .. عدت إلى الخلف خجلاً لأصحح خطأي .. احسست برغبة شديدة في ان اعتذر اليه .. لكنني غيرت رأيي حالما ادركت عدم جدوى الفكرة : « أنا لم أسئ إليه شخصياً ، ولم اخطئ في حقه ، كما انه لا يملك قبول اعتذاري ، او رفضه .. لقد أخطأت في حق النظام .. هل هو النظام شخصياً .. فقط ، سأعتذر إلى النظام بيني وبين نفسي ؟ ! ! » .. في الحقيقة كان التفكير في هذا الموضوع عديم الجدوى .. شعرت بجوع مريع .. زوجتي نسيت انني اعاف الأرانب .. قالت لي ظهر اليوم ، وأنا أدخل تواً : «عندي لك مفاجأة سارة .. حزر .. ما هي ! ؟» .. كانت تبتسم في تملق سخيف .. وقتئذ لم تكن لديّ أدنى رغبة في معرفة أي شيء .. ومع ذلك تطلعت اليها في صمت ، حتى لا أدخل في مزايدات تضيف إلى فراغي بعداً جديداً .. ظننت انها تود أن تطلعني على فستان جديد كعادتها وتطلب فيه رأيي : « ملوخيــة بالأرانب ستأكـل أصـابعك وراءها ! ! » ..

قـالت ذلك وهي تتقدمني إلى سفرة الطعـام في الصـالـة ..
تطلعت إلى محتوياتها لحظة .. وقعت عيني على « ارنبة » تمددت
وسطها كقطة مريضة .. ركضت الى الحمام وأنا اقفل فمي بكلتا
يديّ .. افرغت معدتي وخرجت لاهثاً ، احاول اعادة امعائي إلى
حيث كانت : « الله يسامحك يا شيخة ! » .. فوجئت هي ..
تذكرت انني اعاف الأرانب .. كان التأثر على وجهها واضحاً ..
اعتذرت في مرارة .. لم اعلق على الموضوع بشيء .. حاولت ان
تعد لي طبقاً آخر استبسلت لتناوله بدون فائدة : « يبدو ان الاشارة
قد اخضرت منذ ثوان .. » ضجت ابواق السيارات من خلفي ..
تطلعت في المرآة ، وانا اتحرك بسرعة .. كان التضجر بادياً
على وجه السائق الذي يليني مباشرة : « لا بد أنه يشتمني الآن .. » ..
نظر إليّ الجندي طويلاً .. لم أهتم له هذه المرة : «أنا لم أخطئ
في حقه شخصياً .. سأعتذر للنظام ! ! » .. كانت « الأرنبة »
تتمدد على السفرة مثل قطة مريضة .. تخيلت اثداءها .. كأنها
لا تزال باقية .. تصورتها أُماً انتزعتها السكين من بين صغارها ..
احسست بغثيان شديد .. صرفت منظرها عن ذهني : « الله
يسامحك يا شيخة .. » . مرقت سيارة مسرعة من يميني .. كادت
تحتك بسيارتي لو لم امل بها ناحية اليسار : « مجنون! ! » ..
وتنفست الصعداء .. كانت افكاري قد تبعثرت .. مرت لحظة
توقف تفكيري خلالها تماماً : « لقد جرحت صمتي المفرغ
بقسوة ! ! » .. وقتئذ بدأنا تواً نتهادى المشاعر في صمت ..

كنت احس بها تدخل عالمي ، وتسبح فيه جسماً شفافاً بلا وزن .. كانت هي تحس بي كمشكلة سارة .. كنت اعرف ذلك .. شيء ما كان يجري بيننا في سكون .. انا وهي وحدنا كنا نعرف ذلك الشيء برغم عجزنا عن ادراك تفاصيله .. مجرد الاحساس باهتمام احدنا بالآخر كان يضفي على نفسينا جواً مفعماً بالراحة .. حين قالت لي ذلك فيما بعد ابتهجت كثيراً .. ازداد شعوري بها كشرخ حاد ينتصف عالمي المفرغ .. كفاصل زمني ينسحب على الأشياء في صمت .. فكرت لحظة فيما اذا كنت قد اغلقت درج مكتبي في الجريدة ، أم لا .. انني أحرص على ذلك كثيراً ، برغم بساطة محتوياته : « احياناً نحرص على اتفه اشيائنا .. ههه ! ! » .. تذكرت بقية لموضوع طويل كنت قد احترت في البحث عن مكان مناسب لها .. لا اذكر في أي صفحة وضعتها .. ربما في العاشرة ، أو لعلها السادسة .. لا ادري : « زوجتي اعتذرت لي في تأثر بالغ فيما كنت احاول اعادة امعائي الى وضعها الطبيعي .. الله يسامحك يا شيخة ! ! » .. مؤشر البنزين بدأ يتراقص على خط النهاية : « اللعنة » .. استدرت لأدخل ملفاً وانا احاول ان اتذكر اقرب محطة للبنزين استقبلتني رائحة النفط على بعد امتار « ممنوع التدخين » .. عمال المحطة كانوا يدخنون بشراهة .. ههه .. كدت اصطدم بسطل الرمل الاحمر ، وانا احاول أن اقترب اكثر : « ممتاز ام عادي . ! ؟ » سأل عامل المحطة : « لا ادري كم الساعة الآن ! ؟ » .. تطلعت

الى معصمي .. اكتشفت بأنني لا احمل ساعة .. يبدو انني افعل ذلك كلما احسست بأنني اعود إلى داخل الزمن : « ممتاز ام عادي ! ؟ » .. عامل المحطة سأل من جديد : « هه ! ؟. أوه .. معذرة .. ممتاز اذا سمحت .. » كان الفراغ ينتصف من حولي : « نحن لانختار معظم اشيائنا .. ربما الظروف هي التي تضعنا امام اختياراتنا .. » شعرت بأنني اغرق أكثر .. حاسبت عامل المحطة في صمت .. عاد يطلبني تسعة قروش اخرى .. احسست بأنه خلق لي مشكلة مزعجة .. ناولته ورقة من فئة اكبر .. تضايقت لأنني صرفتها من اجل تسعة قروش .. انتابتني رغبة في ان انطلق بأقصى سرعتي إلى خارج المدينة .. استدرت لأدخل الشارع العام .. لفحني هواء بارد .. اشعلت سيجارة نفثت دخانها في نشوة بالغة .. تذكرت صورة قطار كهربائي بلا عجلات ينسحب على وسادة هوائية ممغنطة .. كان على وشك العمل داخل المدن الالمانية .. آخر ما انتجته التكنولوجيا في عالم المواصلات .. فكرت فيما اذا كنت قد هيأتها لنشرها في عدد الغد .. اذكر ان خبرها كان مليئاً بالأسماء والعملات الأجنبية .. اتصلت بأحد الصيارفة في الصباح لأعرف كم يساوي المارك الالماني بالعملة المحلية .. اجابني بأرقام معقدة مليئة بكسور بدت لي مزعجة .. سألته عما اذا كان يمكن اختصارها بعدد صحيح بالتقريب .. اصراره على الكسور بدا لي غريباً وضعت رقماً قريباً جداً لـ « اقلمة » العملة ، وانا اعيد صياغة خبر القطار .. انخفضت قيمة الذهب في الاسواق

العالمية فجأة .. كنت اتهادى على مشارف المدينة ، وانا اتطلع في المرآة إلى سطوح العمارات .. أضواء النيون المعلقة بدت كأنها تسبح في فضاء المدينة : « الارنبة المحمرة كانت تتمدد على سفرة الطعام مثل قطة مريضة .. لماذا اخرج ذلك السائق رأسه .. كان يقول شيئاً .. لا بد انه شتمني .. قذفتني ابواق السيارات من خلفي وانا اغرق في فراغي ..لا بد ان الاشارة كانت قد اخضرت منذ ثوان .. نظر إلي الجندي طويلاً .. لم احس بضرورة الاعتذار إليه هذه المرة .. أنا لم أسئ إليه شخصياً .. سأعتذر إلى النظام .. ممنوع التدخين .. عمال المحطة كانوا يدخنون بشراهة ! ! » .. كانت فترة طويلة قد مضت .. لم أقل لها انني لم انسها خلالئذ .. ادركت هي ما ارمي اليه ، فتصنعت نفس الموقف .. يبدو انها كانت تحاول سحب اعتراف ما .. لم اقل لها أي شيء .. كنت اصغي لأنفاسها المتلاحقة برغم صوتها البعيد جداً .. تذكرت آخر ثوب تناولته من دولاب ملابسي صباح امس .. كان يجب أن امر على المغسلة في وقت مبكر .. لا فائدة الان .. بدا لي الموضوع مزعجاً .. خلال هذا الأسبوع اسقطت اربع قطع صابون في مصرف المياه المفتوح منذ يومين .. صاحب العمارة وعدني بإصلاحه .. تشاجرت معه لأن صنبور الماء على البانيو لا يعمل بشكل جيد .. اكتشفت هذا الصباح ان فرشاة اسناني لم تعد صالحة .. احسست بأنني في حاجة الى الاسترخاء .. اشعلت لفافة أخرى وأنا أستدير بعرض الشارع عائداً إلى المدينة .. صديقي

سألني أمس لماذا غبت كل هذه المدة .. شعرت به يقترب مني أكثر .. اعتذرت له بمشاغلي .. لم يبد على ملامحه انه اقتنع .. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلاً .. تدافعت الى ذهني صور كثيرة .. تذكرت سيارة الاسعاف : « بودي لو اعرف كيف يجيء الموت بدون ان اموت .. ههه .. ههه .. منتهى الانانية ! ! » .. قالت لي انها تألمت كثيراً .. احسست بصدق عبارتها من خلال صوتها المرتجف : « ما معنى هذا ! ؟ » انها تشرخني اكثر .. واغرق انا اكثر .. يومئذ سهرت الليل كله .. عشت اسراره واحلامه بعينين مفتوحتين .. تصورته كبيراً .. اكبر من الزمن والتاريخ .. زميلي محمود عاد من بعثة دراسية طويلة في الخارج .. كدت انساه .. قال لي انه تخصص في الاورام السرطانية .. اذكر ان جدته ماتت بالسرطان .. لم يتغير كثيراً سوى شاربه الذى يحرص على حلاقته باستمرار .. لازال يبصق امامه بدون تحفظ ، ويتكلم بصوت مرتفع .. افترقنا في مرحلة مبكرة .. اتجه هو شرقاً واتجهت انا غرباً : « ايام ! ! » انتبهت إلى انني ادخل الملف الذي يؤدي إلى بيتي .. لا ادري كيف وصلت اليه .. ربما بحكم العادة .. تأملت المكان بحثاً عن موقف مناسب .. كنت مرهقاً جداً .. كان الجو حاراً .. حملت اوراقي واتجهت إلى العمارة .. كان هدوؤها موحشاً .. عبرت الدهليز المعتم في انقباض شديد .. حارس العمارة رفع راسه ، وتطلع إليّ برهة ، ثم انقلب الى الحائط ليغرق في احلامه من جديد : « محمود لم يتغير في شيء سوى شاربه

الذي يحرص على حلاقته باستمرار .. لا زال يبصق امامه بدون تحفظ ، ويتكلم بصوت مرتفع .. بودي لو اعرف كيف يجيء الموت بدون ان اموت .. ههه .. صوتها المرتجف يشيع في نفسي طمأنينة غريبة ! ! » .. انزلقت نظارتي على ارنبة انفي .. اعدتها إلى موضعها .. تطلعت الى معصمي لأعرف الوقت .. اكتشفت بأنني لا احمل ساعة .. يبدو انني افعل ذلك كلما عدت إلى داخل الزمن .. انفتحت في ذهني كوة سحيقة تداعت اليها افكاري بحيث لم اعد استطيع التركيز .. احسست بوهن يسري في كل جسدي .. تذكرت زميلي ، وصوته المسحوق .. زوجتي قالت لي ، وانا انزع جواربي : « هل يمكنني ان اعرف اين كنت حتى هذه الساعة . ! ؟ » احسست في صوتها بشر مستطير يكاد يشتعل في جوف الليل : « ما رأيك انت . ! ؟ » .. قالت كلاماً كثيراً بدا لي غير مرتب .. فجأة خرجت عن موضوعها الرئيسي .. قالت كلاماً كثيراً بدد تفكيري .. : « ماذا .. هل رفعت دفتر الدوام .. خسارة . ! ؟ » .. غاظها برودي .. قالت لي : « وسخرية ايضاً . ! ؟ » .. كنت قد انهيت تناول طعامي .. تذكرت الأرنبة على سفرة الطعام .. ونظرات جندي المرور ، والسائق الذي اخرج رأسه وهو يقول شيئاً ما : «كان ذلك خطأنا ! ! » قلت لها : « لم يكن بيدينا ! ! » .. وافقت هي على تبريري باستسلام .. وقتها سقطت هي في فراغي شرخاً حاداً انتصف عالمي بقسوة .. احسست بأنني اغرق أكثر : « لماذا يفقد الانسان احساسه بوجوده

احيانا . ! ؟ اللعنة ! ! » .. يومئذ سهرت الليل كله .. عشت
احلامه ، واسراره بعينين مفتوحتين . .. تصورته كبيراً .. اكبر
من الزمن والتاريخ .. ! !

هذيان في الصيف



هزيمات في الصّيف[٧]

صعدت إلى العمارة ذات الأدوار الأربعة في شارع الملك عبد العزيز .. قبل ذلك وقفت لحظة أتطلع إلى أعلى لأقرأ لافتة طبيب الأسنان .. فكرت مرات لأن أتفرغ لهذه المهمة التي بدت لي شاقة ، وثقيلة .. خلالئذ ، كنت أعاني من أزمة شخصية حادة ، وكان عليّ قبل أن أفكر جدياً في الموضوع ، أن أفكر أيضاً في الخطوة التالية ، وكان هذا بالنسبة لي مسألة معقدة .. وقفت فترة قبالة العمارة تذكرت رسالتها المطولة .. كانت تتحدث فيها بمرارة غريبة : « ملعون أبو الدنيا والصيف .. » وقتئذ كان ظهري مبتلاً بالعرق .. استعدت أنفاسي عند نهاية السلم . المتسلق باستقامة مضنية .. وقفت لحظة أمام الباب الزجاجي المتأرجح قبل أن أدفعه أمامي .. استقبلني هواء المكيف البارد حالما دلفت إلى الداخل .. أحسست بانتعاشة مريحة .. نسيت اسم الطبيب .. لم أشعر بمشكلة حقيقية : «لا يهم» .. تراشقتني أعين المراجعين الزائغة .. كانت ملامح وجوههم متعبة : « لا بد أنهم يعانون مثلي من أزماتهم الآن .. » .. أحسست بأنهم قريبون مني جداً .. تطلعت إلى المكان.. لم يكن هناك مقعد شاغر لقادم جديد .. وقفت كالضائع لحظة :

« يبدو أنني أتعامل مع الأشياء بصورة آلية .. لا أدري !! » سحقت عقب سيجارة كان مسحوقاً ـ فعلاً ـ .. بدأت أذرع الصالة جيئة وذهاباً .. قرأت كل الملصقات المصورة على جدران العيادة : « لماذا أتعامل مع الأشياء بصورة آلية .. لا أدري » .. عدت أستعيد رسالتها : « لن تأتي في صيف هذا العام .. » .. أحسست بحزن عميق يجتاحني دفعة واحدة .. وقتئذ سحبت ورقة وجلست أكتب بحرارة بالغة .. قلت فيها كلاماً كثيراً : « ملعون أبو الدنيا والصيف » .. ضحكت من نفسي وأنا أتطلع إلى عقب السيجارة المسحوق : « لا زلت أتعامل مع الأشياء بصورة عفوية .. » .. أحسست كأنني على غير وفاق مع أفكاري .. فكرت في تبرير معقول لهذا الشعور بدون جدوى : « إيه نحن ننفصل ـ حتى عن أنفسنا ـ أحياناً .. لماذا !! .. » لم تبد لي هذه النتيجة مقنعة : « حسناً .. هي لن تأتي في الصيف إذن .. ملعون أبو الدنيا والصيف !! » .. كان العرق المالح يتفصد بغزارة على جباه المارة تحت الشمس .. تأثرت كثيراً ، وأنا أطوي رسالتها .. ابتلعت ريقي ، وأنا أحاول أن أطرد عن ذهني أحاسيس دموية : « لماذا لا تستطيع المجيء بحق السماء .. لقد كانت مبهجة بحق !! » .. أحسست برغبة في التدخين : «كنا ، وكان .. ولم تكن سنوات النزوح قد استحالت ، بعد ، إلى جراح !! » .. كان الدخان الأبيض يتلوى ، أمامي في خط مستقيم ، ثم يصعد مبعثراً لينتشر فوق رأسي .. غامت عيناي ، وأنا أحدق فيه : « لماذا تقسو الحياة هكذا أحياناً .. ملعون أبو الدنيا

والصيف !! .. ومع ذلك لا تخلو ـ في بعض أشكالها ـ من بهجة » .. كان العرق يغرقنا ، ونحن نمارس الحياة في عمقها ، وكنا نسعد بذلك كثيراً .. وقتئذ كنت التحم بأحاسيسي بصورة ودية للغاية .. لم يكن للشمس معنى ولا للنهار .. الصباح والمساء أيضاً كانا يلتحمان بحب كبير .. كان وقتنا يحتضن الزمن وكل الأبعاد والرؤى .. لا شيء كان يهم .. الناس .. السيارات .. الشوارع الملتهبة في الهاجرة .. ورائحة البنزين والعرق والعطر الواقف بشموخ مثير ليغرق كل الأشياء بسخاء .. أيام ، وأيام .. لكنها لن تأتي : .. « ملعون أبو الدنيا والصيف » .

أفقت على رنين جرس الطبيب الحاد ، وأنا أطل على الشارع من شرفة العيادة .. دخل أحدهم ، وخرج المريض الذي كان بالداخل .. جلست على المقعد الذي شغر تواً ، وأشعلت لفافة أخرى : « كان جراحنا يهدأ في الصيف لماذا ؟! بعض الأسئلة تفقد حرارتها في دواخلنا ، وتفقد معنى الاستفهام !! » .. أحدهم ظل يحدق في وجهي بإصرار .. حدقت في عينيه بعض الوقت ، ثم أرخيت بصري عنه .. كدت أنساه .. بعد لحظات التفت إليه .. سقطت نظراتي داخل عينيه رأساً .. ذابت نظراتنا في خطين شديدي التماس .. بدت عينانا كما لو شدتا إلى بعضهما بحبل .. خطر لي أن أحدنا ، أو كلانا يمارس لعبة سخيفة لا جدوى منها : « مالي ، وله .. لا بد أنه يعاني من أزمة شخصية .. ليحدق ما يشاء !! » ولكنني بيني ، وبين نفسي اعترفت بانزعاجي : « لا

يهم .. بعض الناس تعالج أزماتها من خلال أعصاب الآخرين .. لا يهم » . نسيته وأنا أعدل من جلستي للمرة الثانية .. سألت نفسي : متى ينتهي هذا الطابور الجالس .. كان هناك عدد من الأشخاص ينتظرون دورهم .. صرخة من الداخل مزقت صمت المكان الغارق في الألم .. انزعجت بعض الشيء .. انشدت عضلات وجوه من حولي لحظة ثم ارتخت .. بدت عليها علامات استفهام ملحة .. الجرائد لم يمسها أحد .. كان الألم يتبدى بوضوح على وجوه الجميع .. تناولت مجلة من الصحف المتكومة على طاولة عتيقة أمامي .. ابتسمت ، وأنا أطالع التاريخ على غلافها .. ألقيت بها ، في محاولة لأن أنسى الألم الذي بدأ يضايقني .. فكرت أين وضعت رسالتها .. أحسست بانقباض مريع ، وأنا أغرق في ألمي : « لقد كانت مبهجة بحق .. كان العرق يغسل وجهينا في الهاجرة .. يومئذ لم يكن للشمس – برغم اتقادها – معنى .. كان الليل والنهار يتساويان .. » :

– « آي ! » .. صرخة أخرى من الداخل .. تقلصت لها الوجوه لحظة ، ثم ارتخت : « أوه .. هل المسألة تستدعي كل هذا الصراخ .. أعوذ بالله !! » أحدهم تساءل في انزعاج : « أنت لا تعرف معنى الألم !! » .. يا رجل وحّد الله .. ليس هو بمثل هذه القسوة !! ومضى الحوار كئيباً مقتضباً .. لم يكن هناك وقت للألم والكلام معاً فيما يبدو .. وساد المكان صمت عميق .. ارتحت بعض الشيء .. خرج مريض ، وهو يطبق على

فكيه بيديه الاثنتين .. كان العرق يتصبب منه بغزارة .. بصق في ركن الغرفة بدون تحفظ ، وجلس على الأرض .. أحدهم سأله : «أو أنت الذي كان يصرخ في الداخل ! ؟» .. تطلع إليه في صمت .. عيناه كانتا ممتلئتين بالدموع : «في صيف ما ، امتلأت عيناها بدموع هادئة ، وهي تلقي بجسدها المنهك على مقعد قريب .. لم تقل أي شيء .. شعرت ـ لأول مرة ـ برغبة حقيقية في أن ألتحم بوجداني أكثر .. أغرق فيه .. في الواقع ، كنت في البداية أعاني نوعاً ما ، من سوء التفاهم مع مشاعري .. فكرت ، وأنا في غمرة من المشاعر عما إذا كنت أسيرَ نوعٍ ما ، من عدوى وجدانية ، أو هو نوع من الضعف .. أم ماذا ؟! ومع ذلك لمت نفسي كثيراً ، وأنا أحس برغبة سخيفة في البكاء ، بيد أنني سرعان ما وصلت إلى قرار أراحني كثيراً : «النساء فقط يستبكين مشاعرهن .. أما الرجال فليضربوا برؤوسهم أقرب جدار !!» .. انتابتني رغبة ملحة في أن أنطح الحائط عدة نطحات .. ابتسمت ، وأنا أتصور سخف الفكرة .. طردت هذه الرغبة عن ذهني .. نهض المريض وهو يتكلم بصعوبة : «أعوذ بالله .. أهو طبيب أم جزار ؟ !» .. رد أحدهم في محاولة لخلق جو من الاطمئنان : «هذه طبيعة ألم الأسنان ، وليست قسوة الطبيب .. لماذا تخلط بينهما ؟!» .. تطلع إليه المريض في غيظ : «أنت تحاول تفسير الأمور بالطريقة التي تود أن تكون !!» .. فتح هذا فمه : «أنظر ..» أشار إلى فجوات غائرة على كرسي أضراسه : «لقد خلعت أربعة .. وهذا هو

الخامس .. سهرت معه ليلة أمس أصارع الألم .. كنت أقف على قدمي طوال الليل .. وأحياناً أذرع الغرفة جيئة وذهاباً .. تألمت ألماً بالغاً .. هز بعضهم رأسه في عجب وواصل هو : « لقد ضقت به ذرعاً .. أنت لا تعرف ألم الضرس .. أم تريدني أن استسلم للألم !؟ » .. خرج المريض بدون أن يضيف شيئاً .. عاد السكون إلى المكان .. مرت لحظة كنت أستعيد خلالها منظر الألم على وجه المريض الساخط في محاولة لتقييم ذلك الحوار البارد : « أنت رجل غريب .. لماذا !؟ » .. كذلك كانت تقول دائماً .. ولم أكن قد توصلت إلى تبرير ما . لأنها كانت تعجز دائماً عن اقناعي : « حتى أبطال قصصك يفكرون بصورة غريبة .. لماذا » .. كنت أسألها : «كيف !؟ » فتغرقني في بريق عينيها : « أبطالك حزانى دائماً ، وسحناتهم معتمة .. لماذا !؟ » .. وكنت أنا أغرق أكثر .. ويزداد سوء تفاهمي مع أفكاري ، وأحس بانفصالي عن ذاتي .. ابتلعت ريقي وأنا أحاول الدفاع عن نفسي : « إيه .. انها الجراح !! » .. وأغضت هي بينما كان خداها يلتهبان : « أعرف ما ترمي إليه !؟ » .. كنت واثقاً من أنها تعرف فعلاً : « ليس بالضرورة !! » رفعت رأسها فجأة .. أرادت أن تقول شيئاً ، لكنها أمسكت .. لقد خانها صوتها .. كانت على وشك أن تبكي .. لاحظت أنها تتألم : « أوه .. الألم .. الألم .. ولا شيء غير الألم .. ملعون أبو الدنيا والصيف !! » .. أحد المرضى نهض في انزعاج بالغ ، وراح يذرع المكان .. كان يطبق على فكيه بيديه

الاثنتين .. كانت عيون الجميع تتبعه كما لو كانوا جمهور مباراة في كرة التنس .. ربما لأنه كان يمارس آلامنا بالنيابة . أحدهم هز رأسه : « مسكين ! ! » .

ومع ذلك كانت حركاته تصيبنا بالقلق : « أيها السيد .. اجلس .. انك تصيبنا بالدوار» .. تطلع إليه وهو يمر من أمامه بدون أن يقول شيئاً .. أضاف هو في غيظ : « لا فائدة من ممارسة الألم بهذه الصورة .. » ومع ذلك كان صوته يرتجف .. كأنه يحاول أن يقنع نفسه .. أكمل هو دورته وجلس في صمت .. تنفس أحدهم بصوت مرتفع كأنه يعبر عن أعصاب الجميع التي ارتخت ، واستعادت بعض الهدوء : « متى ينتهي هذا الطابور الجالس » .. كان لا يزال أمامي أربعة .. خطر لي أن أغادر المكان : « يبدو أنني أتعامل مع الأشياء بصورة آليـة .. لماذا ! ؟ .. كنت أغرق في عينيها .. لماذا !؟ » .. ابتسمت .. تطلع إليّ بعضهم ، فأسرعت أخفي ابتسامتي .. لماذا : « هناك دائماً خيط رفيع بين الأشياء وأضدادها .. بين العقل والجنون مثلاً .. ماذا لو انقطع هذا الخيط .. لكم تكون تجربة مثيرة أن يختلط العالمان .. لو كان بإمكان المرء استعادة عقله متى يشاء ، لكان هذا ممتعاً ومثيراً .. ههه .. ههه .. بعض الجنون يفوق العقل خيالاً .. ههه .. يبدو أنني قرأت شيئاً كهذا .. لا أدري . دائماً أغرق في بريق عينيها ، وابتهج كثيراً . هل هذا أيضاً نوع ما ، من الخيال ، أم هو نوع من الانفصال عن الأشياء .. أم ماذا .. كنت آنس في صوتها لنبرة

حزينة مكتومة ، كأنها أنغام مكثفة في سيمفونية هادئة .. كنت أتلمس في صوتها هذه النبرة المفعمة بحزن العالم .. لقد كانت تتجاوز سمعي لتتدفق رأساً في أعماقي ، وكنت خلالها أحس بدمائي تنساب في عروقي بدفء عجيب .. ثمة أحاسيس نعجز ـ أحياناً ـ عن التعبير عنها .. مرة قلت لها ذلك فضحكت : « النساء فقط يستبكين مشاعرهن . أما الرجال فليضربوا برؤوسهم أقرب جدار ! ! » .. مرة أخرى خطر لي أن أضرب برأسي الجدار .. كان ضرسي قد هدأ بعض الشيء .. مزق جرس الطبيب سكون المكان الغارق في الألم .. بقيت وحدي أمارس الملل ومرارة الانتظار في زحمة من خواطري المتناقضة .. حفارة الأسنان الرهيبة ، وملاقط الطبيب وكلاباته المثيرة ، وأسئلته التي لا تنتهي .. فجأة تصورت أبرة البنج مغروسة على لثة رجل يضحك .. في الحقيقة لم يكن يضحك .. أقشعر بدني وأنا تخيل المنظر .. انتظرت طويلاً . أحسست كأنني أختنق .. ضجيج الحفارة يكاد يحطم رأسي . بريق عينيها لمع فجأة في ذهني .. نفس الخلفية ، والنظرة المنطفئة في الداخل .. تماماً تتكثف كأنغام حزينة من وراء لحن هادئ ، كأرضية عميقة الجذور .. ضجيج الحفارة يكاد يحطم رأسي ، وإبرة البنج المغروسة على لثة رجل يضحك .. في الحقيقة لم يكن يضحك : « أنت تحاول تفسير الأمور بالطريقة التي تود أن .. » حقاً .. لماذا نخدع أنفسنا أحياناً : « هذه طبيعة ألم الأسنان وليست قسوة الطبيب .. لماذا تخلط بينهما !؟ » .. كان العرق

يغرقنا ونحن نمارس حياتنا في العمق : « وقتئذ كنت ألتحم بأحاسيسي بصورة ودية للغاية .. لم يكن للشمس معنى ولا للنهار .. الصباح والمساء أيضاً كانا يلتحمان في حب كبير .. كان وقتنا يحتضن الزمن والرؤى ، وكل الأبعاد .. لا شيء كان يهم .. الناس .. السيارات .. الشوارع الملتهبة في الهاجرة .. ورائحة البنزين ، والعرق والعطر الواقف في شموخ مثير ليغرق كل الأشياء بسخاء .. أيام .. أيام .. لكنها لن تأتي .. ملعون أبو الدنيا والصيف . ! ! » .

* * *

أفقت على رنين جرس الطبيب من جديد .. تلفت حولي برغم أنه لم يكن هنا سواي .. ضجيج الحفارة لا يزال يدير رأسي .. فكرت .. لم يكن هناك وقت للألم والكلام معاً .. تلكأت قليلاً ، قبل أن أدلف إلى الداخل : « صباح الخير .. » .. أشار الطبيب إلى المقعد المعلق .. صعدت إليه وقلبي يسقط وسط معدتي .. أحسست كأنني أجلس في مركبة فضائية ، وأنني عما قريب سأفقد وزني ، وأعوم كمثل ذرة تحملها الريح ، وبعد قليل سيبدأ العد التنازلي : « افتح فمك من فضلك ! ! » وابتسم الطبيب .. أدركت أنه يحاول أن يشيع جواً من الاطمئنان : « افتح فمك .. » تأملت العبارة لحظة : « طلب سخيف لو لم يكن .. ! ! » .. فتحت فمي .. أحسست كأنني أمارس لعبة ثقيلة : « افتح أكثر .. » .. وفعلت بدون أدنى معارضة سمعت صرير فكي وطرقعة دوت في أذني .. نقر على

أسناني فأحسست بنقراته كخبطات مطرقة هائلة تهوي على أم رأسي .. أمسكت بيده تحت وطأة الألم : « اهدأ أرجوك .. » حاولت أن أتكلم لكن كلماتي بدت لي غير منضبطة .. كنت قد فقدت السيطرة على كل مخارج الحروف .. شعرت بأن أية محاولة للكلام ستكون سخيفة .. اكتفيت بملامحي أعبر بها عن مشاعري العاجزة .. حررت رأسي من بين يديه وأنا أفقد وزني تماماً .. كانت عيناي ممتلئتين بالدموع .. أمسكت برأسي في إطراقة مميتة ، بينما كان هو يعبئ إبرة البنج .. غرسها بخفة .. وانتهيت بحمد الله .. كانت مهمة شاقة .. ورويداً .. رويداً كان الألم يهدأ حتى فقدت فكي تماماً .. وفي أعماقي كان العد التنازلي قد بدأ فعلاً .. فكي يسقط الآن في هوة من العدم .. كان الطبيب يتطلع إلى ساعته .. أشار إلى المقعد من جديد : « تفضل .. » . مرة أخرى صعدت إلى المقعد المعلق .. عاد إليّ شعوري بأنني أسبح داخل مركبة فضائية .. فكرت أن أفضي إلى الطبيب بهذا الشعور .. لكنه لم يمهلني .. كانت كلاباته تحشو فمي .. انتابني احساس بأن هذا المقعد سينطلق بعد لحظات ، ولكن إلى أين .. لماذا ، وأسئلة أخرى لم أفكر في الجواب عنها وقتئذ .. كانت أفكاري قد توقفت وأطرافي قد بردت تماماً ، وكانت حبات من العرق البارد تتحدر على جبيني .. مرت لحظات مريرة قبل أن أسأل عما إذا كان بإمكاني مغادرة هذا المقعد أم لا .. في الحقيقة لم أكن أشعر بشيء مما كان يدور داخل فمي المفتوح في بلاهة من الشدق إلى الشدق ..

فجأة أحسست بملوحة في فمي وسائل ينفجر بغزارة : « لا بد أن يكون هناك حدث ما قد تم فعلاً .. » .. كان الطبيب منهكاً .. تطلعت إلى ضرسي المخلوع بحزن بالغ وأنا أحس بفراغ هائل داخل فمي .. كان السوس قد نخر وسطه : « لكم كان أليماً » تبددت كل أفكاري وأنا أضغط على قطعة القطن المشوب بالدواء .. أحسست بارتياح ، وأنا أهبط سلم العمارة ذات الأدوار الأربعة .. تذكرت اسم الطبيب فجأة .. كانت الشمس لا تزال حامية ، والرطوبة المالحة تسقط في الخارج : «كان جراحنا يهدأ في الصيف برغم العرق المالح الذي نسفحه في الهاجرة .. لماذا لا تستطيع المجيء بحق السماء . ملعون أبو الدنيا والصيف .. كنت انتظرها كمواسم الحصاد .. لا فائدة .. سيكبر الجراح ، وتزداد الغربة ، وحين يرحل الصيف سنبدأ رحلة جديدة إلى أعماق الغربة في انتظار الموسم الجديد .!! » .

منابع الدم والجراح



منابع الدّم والجراح

ليل مدينة جدة ينتصف الآن في هدوء ظلال الاشياء .. الساعة المعلقة على جدار الصالون تخفق عبر زجاج النافذة في رتابة اللحظة الكئيبة ، ورطوبة مالحة تسقط في الخارج .. أضواء النيون على رصيف الشارع البعيد تبدو من خلال الشرفة كما لوكانت معلقة في الفضاء .. بدأ الليل يرتخي بعمق الهدوء الذي يلف المكان .. صفارة (عسس) الليل تشرخ جدار الصمت المشنوق بانقباض اللحظة .. توقف تفكيره لحظة .. بدأ ذهنه كمثل صفحة بيضاء صوتها الغامض لا يزال يرن في اعماقه كما لو كان آتياً من غور بعيد .. شيء ما فيه يستفز في صدره الف رجل .. كان يتدفق في وجدانه كشلال ضوء دافئ يبهج صدره ، تلك الصورة محت كل ذكرياته ، لتنتصب مستقبلاً مجهول الحجم والمصير .. أحس كأنما هو في منطقة منعدمة الجاذبية .. في البدء كان شيئاً مبهماً يلجأ اليه في اخريات الليل كسر عزيز .. بيد أنه بدأ يكبر مع الأيام .. أحس كأَن دواخله لم تعد قادرة على احتوائه .. يومها رفع سماعة الهاتف ، وتوقف هنيهة قبل أن يدير رقمها .. تنحنح قليلاً ، وابتلع ريقه .. مسح عن جبينه حبات عرق باردة ..

تطلع إلى ارقام الهاتف بريبة .. بدت كمثل عيون فضولية ترقبه بنظرات ساخرة .. خيل اليه ان ستاراً وردياً يوشك ان ينفرج عن مسرحية ما .. فجأة انساب صوتها كخلفية هادئة حزينة لـ (اوركسترا) صاخبة .. اودعها سره الذي غلفه في صدره بحنان طوال عام .. تلقته هي ببرود .. ربما كانت تبتسم في الطرف الآخر بينما كان هو يلعق مرارته ، وينكفئ على خيبته .. شيء كهذا خطر له .. أصغت اليه باهتمام ، ثم قالت له (ليس عندي ما أقوله) .. فوجئ هو بالنتيجة .. كان في نفسه - دائماً - احساس بأنه يسرقها شيئاً ما ، يجهله ، ولكنه بدون شك ، ذو قيمة كبيرة .. شيء يحسه في أعماقه .. مزيج من اللذة والحرمان .. كان ذلك الشيء يبعثر أعماقه ، وخواطره .. همسها العميق يجيء دائماً حزيناً يغسل وجدانه ، ويحدث في نفسه (توقعاً) يهدد (امنه الداخلي) وعندئذ يبدأ صدره في الخفق كمثل (وابور طحين) .. هكذا .. ويعود ليتساءل (لماذا .. لماذا) ، ويشد شعره بعصبية .. لكن السؤال ينكفئ إلى أعماقه بارداً كقطعة ثلج هشة : (صوتها المتعب يجيء مثقلاً بالحزن والأسى ليدمر كل شيء) .. لم يكن عندها ما تقول (ههه .. ههه) ضحك بجنون .. عاد يجتر احاسيسه في لحظة ندم جارح .. بدا له كأنما يبحث عن ذاته خلال ذهنه المتعب .. نهض الى الشرفة يجر قدميه .. تطلع الى بعيد عبر ستائر تغازل الضوء في الخارج .. لفح وجهه هواء بارد لزج .. كان

الليل يرتخي أكثر .. الساعة المعلقة على جدار الصالون تخفق عبر زجاج النافذة في رتابة اللحظة الكئيبة .. صفارة (عسس) الليل تشرخ الصمت المشنوق في انقباض اللحظة .. تبسم بامتعاض .. مرت لحظة مريرة .. عاد وارتمى على الأريكة من جديد .. أشعل لفافة ، ومدد رجليه في ارتخاء بليد .. بقي يقضم عود الثقاب المنطفئ تواً .. الراديو (الترانزستور) في حضنه بارد كالثلج : (لماذا نقسو على انفسنا بمثل هذه الصورة) سؤال بدا بدون معنى .. هي قالت له : (انها لن تلتزم بشيء ، وبالتالي لا دخل لها بكل ما حدث أو سيحدث .. وقتئذ قرر ذلك .. كان يسقط في (اللامعنى) باستسلام : (من قال ان الصورة كذلك) اهتزت الرؤيـة في عينيـه ، وغامت لحظات .. أحس كأنمـا أضاع شيئاً هـامـاً : وقتئذ كـان حوارهما يـدخل منعطفـاً كئيبـاً .. بدأ صوتها يعلو بأنفعال .. كان حزنه يتكثف عميقاً متعباً ليذوب في وجدانه بحنان .. تقلص قلبه وتأودت اضلاعه .. أحس كأنه على وشك ان يبكي .. ابتسمت هي بمرارة ، ربما لتشيع جواً من الطمأنينة يبدد عنف اللحظة .. كانت النتيجة مؤلمة حقيقة (ولكن .. ولكن .. لماذا كانت تستجيب وتصغي ويرقص قلبها في البدء .. لماذا كانت تستعطيه المزيد .. لماذا كانت تستدر اعماقه !؟) .. ربما لاختبار قدراتها .. أحس كأنه استخدم كأنبوب اختبار في معمل مشبع بروائح متناقضة .. شد شعره بعصبية .. توقف ذهنه فجأة .. حالة جمود ممضة بدأت تلتهم افكاره : (البداية

لا تهم) .. كان يجب ان يدرك هذا جيداً : (كيفيات الاشياء هي التي تحدد مصائرها فيما يبدو) .. بدت النتيجة كما لو كانت نافذة تشرع مصراعيها للشمس فجأة : (ربما الذي يجيء بعدئذ يحول مسارنا إلى أكثر من منعطف في طريق لا يطول كثيراً) .. كانت النافذة تتسع اكثر ويتكثف الضوء أكثر : (الخيال أكذوبة كبيرة .. يضيع في متاهه الذين اتعبهم البحث عن الحقائق) .. ابتسم بمرارة ، وهو يسحق سيجارة ، ويشعل اخرى .. وقتئذ ، لم يبد غريباً ان تتبدل المواقف في منتصف الاشياء : (وحينئذ قد لا تصلح نقطة البداية مكاناً – حتى – للعودة اليه لمجرد الذكرى ، والاجترار .. ولكن هل يمكن ان ننسى) .. تساءل في ألم .. هي انكرت ذلك حين وضعها أمام الصورة في الداخل .. ابتلع ريقه وهو ينزع خنجراً غاص تواً في اعماقه .. بقي يذرع ذهنه في عصبية .. ضغط على جرحه النازف بكبرياء .

تحامل على نفسه كيلا يسقط خلال الحوار المفعم بالانقباض .. كان يحاول استعادة ما تبقى .. عادت مشاعره تنكفئ إلى الداخل .. وضع السماعة في هدوء ، وبقي يمسح بعينيه الفراغ .. شعر بارتماء بليد .. كان طعم المرارة لا يزال في فمه .. كان يغص بندم هائل لا طاقة له به .

* * *

ليل مدينة جده ينتصف من جديد في هدوء ظلال الاشياء .. الساعة المعلقة على جدار الصالون تخفق عبر زجاج النافذة في رتابة

اللحظة الكئيبة ، ورطوبة مالحة تسقط في الخارج .. صفارة (عسس) الليل تشرخ صمت الهدوء الذي يلف المكان .. عاد يجتر حوارهما بتلذذ .. ذلك يقرب ملامح الصوت الذي تتلوى في حرارته ألف أنثى .. وحده كان في الساح ينوء بترددياته ، وكل أشيائه الصغيرة والتافهة .. كل مواقف الحيرة والندم .. ضغط على صدغيه بقوة : (ظالمة) .. فوجئت هي بالعبارة : (أنا ؟ !) .. هي انكرت مثل هذا الجانب في القضية .. لأنها تراها من وجه واحد .. جانبها هي فقط : (أنانية) .. لكن لم يخطر ببالها ما يجري في الجانب الآخر : (فقد نظلم حتى عندما نرد عطاء الآخرين) .. هي لم تحاول أن تدرك هذه النتيجة ، لأنها لا تريد ذلك .. لا شيء كان يهم بالنسبة اليها .. ربما بنفس الحجم المعاكس لنظرتها .. بدا له كأنما هو أمام معادلة غريبة .

* * *

ما كانت هي البادئة .. ذلك صحيح .. ولا كان هو البادئ ، وهذا ايضاً صحيح .. ولكن شيئاً ما ، كان يحدث في منتصف الصورة ، كانت تنمو في نفسه جذور نبتة ما .. في البدء تصورها وهماً كبيراً .. خاطراً مجنوناً لمراهق في الثلاثين .. لكنه – بعدئذ – بدا يعاني ازمة في الداخل ، كمثل جدار يريد ان ينقض ، كان يتكئ بكل قواه ليسند شيئاً ما ، كان وشيك السقوط .. كان يدفعه بكل صموده ، وكان هو يميل اكثر ،

ويثقل أكثر .. حمله عاماً كصخرة (ايزيس) وجاء عام ..
كانت النبتة تنمو ، ويضيق الحصار من حوله .. وحده كان
يقاتل رجاله الالف .. وحين انهارت آخر مدنه وقف في عناد –
كربان سفينة غارقة – يحتضن انقاضها .. كانت معركة غير
متكافئة .. كانت هي واحة خضراء ، حتى لم يعد في صدرها
موضع لنبتة جديدة .. لكن صوتها كان يدمر أعماقه .. كان
يسمع خلاله أشياء غير اللفظ والكلمة .. أشياء غامضة جداً
وحميمة جداً .. صوتها كان غنياً بالإثارة والشجن ..
كان يخافه ويحبه في آن معاً ، وكان الجدار يتكئ أكثر وتتدحرج
الصخرة أكثر ، (وايزيس) يهوي بلا رحمة .. شيء ما كان
وشيك السقوط .. اشعل لفافة أخرى ونفث دخانها في الهواء
بقوة ، فراح يتسلق الجدران في دوائر باهتة : (في قلبي زهرة لن
تموت) وزفر بألم .. احس بسخونة تسري في أوصاله .. حين
قالت له : (لست طرفاً في القضية) سأل هو بدهشة : (من
يكون الطرف الآخر اذن ؟) .. خيل اليه انها تطلب المزيد من
التأكيد .. مزيداً من اختبار قدراتها خلال ترددياته .. وكان هو
انبوب الاختبار الأجوف الذي اهترأ بفعل الأحماض المتناقضة :
(انه منك واليك) .. جف حلقه وشعور ما بأن شيئاً عزيزاً
يتلاشى بين يديه .. عادت تقول : (لست طرفاً فيه) .. احس
كأن المزيج بدأ يغلي في الانبوب ، وكأنما حدث في تركيبه
خطأ ما ، وهو يتوقع أن ينفجر في أية لحظة .. شعر برأسه

ينشطر نصفين .. تحامل على نفسه بجهد كبير : (ولكن .. من كان السبب .. ولمن كان يخفق صدري كمثل (وابور طحين) كان صوتها لحظتئذ بعمق الليل .. قالت في حنان مثير : (لا أدري .. لا أدري) فكر هو لحظة : (هل يمكن أن تموت أشياؤنا الحميمة في لحظة انفعال) .. قالت في لهجة متحفظة : (أنا أملك يومي ، وهدفي وأمشي اليه بخطى واثقة) .. مسح بعينيه الفراغ لحظات قبل أن يستفيق على أنفاسها الواهية في الجانب الآخر : (يا للسماء) .. دفعة واحدة هوى ايزيس وانقض الجدار ، وسقط ذلك الشيء الذي كان وشيك السقوط .. دار رأسه على دوي أنبوب الاختبار .. وضحكت هي .. خيل إليه أن ألف أنثى يَتَلَوَّيْنَ في حرارة صوتها خلف ستائر مخملية .. أحس بجرحه ينزف بدون ألم هذه المرة .. ذلك أوج الألم حين يفتح منابعه في استسلام للعطاء .. تصور في تلك اللحظة أن عقارب الساعة تتقهقر إلى الوراء .. وان العالم يقف دقيقة حداداً على الانسانية التي نفقت تواً .. هكذا .

* * *

ليل مدينة جده ينتصف الآن في هدوء ظلال الاشياء .. الساعة المعلقة على جدار الصالون تخفق عبر زجاج النافذة في رتابة اللحظة الكئيبة .. بدأ الليل يرتخي بعمق الهدوء الذي يلف المكان .. طيفها السابح في اجواء الغرفة لا يكاد يبرح خياله ..

صفارة (عسس) الليل تشرخ جدار الصمت الكابي على المكان من حوله (حنانها المفعم بالحزن عميق جداً ، ورائع جداً) أحس بدواخله تستفيق للحظات ، تمثل عرساً حزيناً لبداية لم تنته ، ونهاية لم تبدأ .. أحس بوحدة قاتلة : (لا بأس) .. انها معركة خاضها بشرف ، وخسرها بشرف .. وكان هذا وحده نتيجة مبهجة .. بيد انه كان موقناً بأن النبتة في صدره لن تموت ما دام قلبه يخفق بالحياة .. وقتئذ قال لها (سأقف هنا) ، وخط فاصلاً في الهواء .. خطاً وهمياً – كخطوط الحدود الجغرافية – تعهد لها باحترامه .. وكان عليه عندئذ أن يستفيق ويتساءل : « ما معنى أن تخفق صدورنا لتضخ عطاءها إلى الداخل » .

وجهٌ خارج الزّحام

وجه خارج الزحام

« اللعنة على الحضارة » .. تلافيت سيارة مرقت بجنبي كالسهم .. بقيت برهة أستعيد هدوئي : « اللعنة على الحضارة » .. استدرت عبر الشارع لأدخل منعطفاً جانبياً .. أحسست باختناق ، وأنا أغرق في عرقي .. لا أدري لماذا تذكرت رسالة تسلمتها أمس لصديق بعيد .. ابتسمت ، وأنا أستعيد فحواها : « عزيزي .. عليك اللعنة ـ إن شئت ـ وإن شئت السلام » .. هكذا بدأ الصديق رسالته .. انفجرت ضاحكاً بدل أن أغضب .. كانت عبارته مشحونة بأحاسيس مثيرة .. فكرت ، لماذا يلعنني هذا الشقي .. ومع ذلك لم أملك إلا أن أضحك .. رددت عليه : « يا ملعون وصلتني رسالتك .. ولك حبي .. » كان يزورني ، ويجلس قبالتي كاللعنة ، ومع ذلك كنت أُحبه .. كان يقرأ عليّ شعراً طريفاً ، ويطلعني على أفكاره المجنونة ، فأضحك ملء المكان ، دون أن يضحك هو : « اللعنة على الحضارة » .. اتصلت بي شركة التأمين أمس تذكرني بقسطها الذي استحق الدفع منذ بضعة أيام .. فكرت .. ما قيمة أن يؤمن الإنسان على حياته ، ما دام هو شخصياً لن يجني ثمرات هذا التأمين .. قال لي مندوب الشركة

ـ حين زارني منذ أشهر ـ إنه من أجل أبنائي .. قال لي كلاماً كثيراً بحيث ظننت أنه سيملكني العالم .. لا أدري أين كان عقلي وقتئذ .. إذن فهو من أجل أبنائي .. حسناً .. ما أسخف هذا المنطق .. أو أكون مسؤولاً عنهم حياً وميتاً ! ؟ .. وقتها يعلم الله من منا أحوج إلى المساعدة .. أنا الذي أواجه آثامي في خيبة مريرة ، أم هم الذين يمرحون في طول الحياة وعرضها .. إنهم ينتظرون موتي بأسرع ما يمكن والشركة تريدني أن أعيش أكثر ، لأدفع أكثر .. الهدف واحد .. لكن آدميتي .. إنسانيتي .. مشاعري .. ذكرياتي ، وآلامي .. فرحي ، وحبي ، وكل أحاسيسي الحميمة ، لا تعني شيئاً بالنسبة إليهم .. حسناً .. سأنهي التزامي مع الشركة .. وملعون أبو الحضارة .. أحسست بانقباض ، وأنا أبحث عن موقف قرب المسجد الكبير .. تذكرت فاتورة التليفون ، وسرحت .. لا أدري متى كانت البداية .. الزمان لا يهم .. فقد كانت مبهجة بحق .. هل من الممكن أن يكون .... أوه ... لا شيء مستحيل في هذا العالم .. فقد حدث شيء ما ، بالتأكيد .. هي لم تصدق .. لكن ذلك لم يزعجني كثيراً ، فأنا أيضاً لم أصدق .. ربما كانت تمارس نوعاً من الاستدراج بغية مزيد من التردي .. ذلك يزيد من رصيدها ، ولكن على حساب اتزاني .. حسناً .. لكن شيئاً ما ، قد حدث بالفعل .. كان صوتها يجيء مفعماً بحرارة استوائية : «أنا لا أصدق هذا ..» .. وانتظرت تترقب في صمت خبيث .. لا بد أنها كانت تبتسم في الجانب

الآخر : « من وجهة نظر منطقية .. هذا صحيح .. ولكن من قال إن مشاعرنا تخضع للمنطق .. » ..

كان الصمت لا زال يسود في الجانب الآخر .. كفت عن الحديث .. قررت أن ردي خيّب أملها في مزيد من الانزلاق .. كنت أسمع أنفاسها تتردد في قلق تحاول اخفاءه .. لاحظت في صوتها نبرة غريبة .. دفء غامض تشوبه بحة متعبة كأنما هي ظلال حزن قديم .. تذكرت « وجهاً في الزحام » ، ومصوراً مقتولاً في عيني امرأة .. لا أدري أين شاهدت هذا الفيلم .. كان حظها قد ساقها إلى هاوية كادت تتردى فيها .. كانت تريد أن تعيش .. تبدو كالأخريات .. ولكن كيف .. غارت من صور النساء الأنيقة المعلقة على جدران الاستديو .. وكان هو يذوب في عينيها .. رنت إليه بعينين ضاحكتين غرقتا في سؤال ودت لو يكون جوابه كما تحب :

- « عايز تجوزني .. » .

صاح هو :

- « النهارده قبل بكره .. » .

- « طيب نزل الصور دي الأول .. » .

صاح هو من فرط النشوة :

- « واد يا فتحي .. » .

أجاب مساعده من الداخل :

- « نعمين يا معلم .. » .

- « هد البترينه !! » .

ونظرة مفعمة بالسعادة .. وضحكة مثيرة .. هي .. هي .. « وجه في الزحام » .. ووجه خارج الزحام .. نفس الضحكة .. نفس الشوق ، تؤججه ملامح استوائية .. لا أدري ماذا فعل فتحي بعدئذ .. لا أذكر متى شاهدت هذا الفيلم ، لكن هذا المنظر ظل عالقاً بذهني يصعد إلى خواطري كلما انساب صوتها الموحي بأشياء غامضة ..

أغلقت نوافذ السيارة .. وترجلت .. وقفت أمام باب المسجد ، وأنا أنفض عن ذهني بقايا خواطري .. لا يزال الجو حاراً ، والشمس تكاد تسقط على الأرض .. كان حذائي يلتهب تحت قدمي .. تطلعت إلى الصفوف المتراصة قبل أن أدلف إلى الداخل ، فاليوم هو الجمعة .. شعرت باختناق شديد ، وأنا أحاول أن أجد مكاناً أجلس فيه .. كان العرق يغسل جسدي ، ولا تزال الرطوبة لزجة في الخارج .. أصوات المصلين بدأت تخفت ، بينما نهض بعضهم يعيدون المصاحف إلى مواضعها .. كان الإمام قد صعد على المنبر .. لفحني هواء المراوح التي كانت تخفق على سقف المسجد بأقصى سرعاتها .. بدأ ظهري يجف من العرق ، لا أدري أين وضعت حذائي .. سيارتي نسيت أين أوقفتها .. لا يهم .. سأبحث عنها كالعادة .. انتبهت إلى صوت الإمام يبدأ خطبة الجمعة ، بينما راحت مكبرات الصوت تكثف أصداءه في جنبات المسجد .. فكرت فيما إذا كان من

الممكن أن ينفصل الإنسان عن خارجه ويعيش لحظات مغلق الذات .. بدا لي الأمر مستحيلاً : « لماذا تشدنا الصور الخارجية ، حتى في لحظاتنا الروحية .. » .. فكرت في الماضي والحاضر والمستقبل .. فكرت في الموت والحياة والناس ، وأبي الذي مات منذ سنين ، وأشياء أخرى متناقضة .. كان صوت الإمام يتدخل قوياً من حين لآخر لتجزئتها : «كلكم راع .. وكل راع مسؤول عن رعيته » .. استبسلت في حصر تفكيري ، فكنت كالذي يقبض على حفنة ماء بكلتا يديه .. بعدئذ طوحت بي همومي وخواطري إلى آفاق سحيقة .. كنت أصحو على الندم والخيبة والمرارة .. كان الإمام قد قال كلاماً كثيراً ، وجلس .. تأملت بعضه في خيبة مريرة .. نهض الإمام من جديد .. حمد الله وأثنى عليه .. عدت أنا في عجز لأغرق في تصوراتي وخواطري : « نحن لا نملك ذواتنا .. لماذا !؟ » فكرت فيما إذا كانت علاقتنا بالخارج أكثر التحاماً منها بذواتنا .. يبدو أنني كنت أحاول تقويم هذه النقطة على مستوى أكثر دقة .. ربما ـ بالضبط ـ مدى امكانية انفصالنا عن الخارج ، وقدرتنا على الانغلاق : ما هي الحياة إذن .. وما هو الإنسان .. هل هي أن نتنفس وتنتفخ رئاتنا ، وتتقلص لنكون أحياء » .. بدت لي هذه النظرة ، باردة : « نحن لا نملك مجرى تفكيرنا كما يجب .. لعله شيء كالنوم ، والجوع والسعال .. أشياء تجتاحنا ، ولا نملك لها رداً .. كذلك خواطرنا ، تجبرنا على ممارستها .. لماذا !؟ .. حادث ما ، في يوم ما .. في

شهر .. في سنة .. ليس مهماً .. المهم كان هناك حادث .. دماء ، وجراح .. سيارتان .. سيارة وإنسان .. لا يهم .. المهم كانت هناك سيارة ، وكان هناك إنسان .. مات ، أو جرح أو ماذا .. أسئلة يطرحها المتفرجون في فضول .. انتبهت إلى صوتي وأصوات كثيفة ، تردد : « آمين » بينها فاصل زمني يشكل تتابعها في انسجام مريح .. عيون شاخصة إلى أعلى ، وأكف مرفوعة .. كنت أنا أيضاً كذلك .. عيناي شاخصتان ، وكفاي مفرودتان إلى أعلى ، وكانت : « آمين » ملء فمي .. يبدو أنني كنت أمارس خشوعاً فطرياً في اللاوعي .. لا أدري .. بيد أنني أحسست بمرارة أمام عجزي : « لماذا نمارس حتى أعز أشيائنا بصورة آلية !؟ » : « استووا يرحمكم الله » .. نهض المصلون يتدافعون إلى الصفوف الأمامية : « استوينا على طاعة الله ورسوله .. » نهضت ، واستويت واقفاً : « استوينا على طاعة الله ورسوله » .. عادت خواطري تجتاحني : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. » .. جاري سحبني من ثوبي يشير إلى الامام ليستقيم الصف : « لماذا نعجز عن الالتحام بذواتنا » .. يبدو أنني كنت أحاول طرد خواطري بسرحان جديد بدأ يجتاحني هو الآخر كالسعال .. فكرت في الشيطان ، والناس ، والحب والكراهية ، وأبي الذي مات منذ سنين .. كان يقرأ ، حتى في صلواته ذات القراءة السرية ، بهمس كالجهر .. ربما كان يحاول طرد خواطره .. لا أدري .. : « الله أكبر » .. كبّر المؤذن خلف الإمام بصوت منغوم .. مرت لحظة صمت خاشعة :

« الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم » .. حاولت أن أحصر تفكيري في زاوية محددة .. أغمضت عيني .. استدارت ساعة الحائط الكهربائية ، وانتصبت أمامي في الظلام ، ونقط سوداء ، وبيضاء ، ودوائر كثيرة تتراقص ملء المكان .. وشوشة المراوح تكثفت فجأة كصوت موتور هائل .. فتحت عيني .. لا تزال النقط الصغيرة ودائرة الساعة منعكسة داخل عيني .. سقط عقرب الساعة في حركة خاطفة ثم ثبت .. تابعت ذلك برهة ثم ابتسمت .. فجأة تذكرت : وجه في الزحام ، وآخر خارج الزحام .. خاطرة اجتاحتني كالسعال : « اللعنة على الحضارة .. » غاظتني مذكرة شركة التأمين .. انها تريدني أن أعيش أكثر ، لأدفع أكثر : « من أجل أبنائك » .. كأنهم أحرص مني عليهم .. هههه .. ههه .. وهل أنا مسؤول عنهم حتى بعد مماتي .. وقتها يعلم الله من منا أحوج إلى المساعدة .. أنا الذي أواجه آثامي .. أم هم الذين يمزحون في في طول الحياة وعرضها : « إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها .. » .. كان صوت الإمام رخيماً تشوبه نبرة حزينة .. أحسست بقربي منه .. فكرت بعض الوقت .. انتابتني قشعريرة خفيفة .. تذكرت هزة أرضية وقعت في طفولتي .. الصورة غير واضحة تماماً في ذهني ، لكنني أذكر جيداً أنني كنت عارياً لحظتئذ .. كان الوقت صباحاً .. وكان في يدي فنجان شاي ساخن .. تمايل الذين من حولي ، ورجفت أنا في خوف شديد .. اندلق فنجان الشاي على فخذي ، وصرخت .. أسرعت أمي

إليّ مذعورة ، وهي تغمغم : « يا لطيف ألطف بنا » .. لا أدري متى وقع هذا .. كان الرعب يملأ عيون الناس ، وحين ارتفعت الشمس خرجوا يتحدثون عن الزلزال في تهويل شديد .. تنحنح جاري ، فانتبهت .. كانت يداي قد سقطتا إلى جنبي .. لا أدري كيف .. أعدتهما إلى صدري ، واعتدلت : « بأن ربك أوحى لها .. » اجتاحني تثاؤب ثقيل راح يلاحقني بصورة مزعجة .. أسرعت أضع راحة يدي على فمي .. يدي الأخرى سقطت إلى جنبي .. أعدتها إلى صدري من جديد ، واستقمت .. امتلأت عيناي بالدموع .. فتراقصت أمامها الرؤى في أشكال متماوجة .. فجأة ابتسمت ، وأنا أتذكر حوادث طريفة عايشتها ليلة أمس .. كنت أقرأ « أوديسة » هوميروس .. قضيت بصحبتها لحظات أسطورية ممتعة : « مسكين « أوديسيوس » .. ملك ايثاكا العظيم .. عاد المحاربون من طروادة بدونه .. قالت الأسطورة : إن الآلهة حكمت عليه بالتيه في عرض البحر » : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ، ليروا أعمالهم » .. النجفة المعلقة فوق رأسي بدأت تحدث صوتاً مقلقاً : «كان عشاق زوجته الأوغاد قد انتهزوا فرصة غيابه ، فملأوا قصره العريق .. كانوا يقضون فيه ليلهم والنهار يأكلون ويشربون بدون أن يستطيع أحد في القصر ردهم .. كانت الزوجة الوفية تتوارى عن عيونهم في انتظار عودة الغائب .. لو كان أوديسيوس في ايثاكا ، لما جرؤ أحدهم على الاقتراب من قصره : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره .. » .. كان الحر يشتد في الخارج ..

والعرق يغمر أجساد المصلين ، كأنما الشمس قد هبطت على سقف المسجد : «كان ابن أوديسيوس .. ذلك الغلام الحدث يكاد يأكل نفسه من القهر .. كان ينظر إلى عشاق أمه الأوغاد ويشعر بخزي شديد .. كان عاجزاً عن ردهم .. لكنه قرر أخيراً أن يبحث عن أبيه : « في أي أرض أنت الآن يا أوديسيوس .. أي ملك ايثاكا العظيم .. تعال لترى أي مهزلة تجري في قصرك» .. كان قد قرر أن يبحر بحثاً عنه ليدعوه إلى انقاذ شرفه .. ثم ماذا حدث بعدئذ .. كان قد غادر إلى اسبرطة : « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .. » .. ثم ماذا حدث بعدئذ .. لا أكاد أذكر : « آه .. وقتئذ داهمني النوم ، وكانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً .. ثم ماذا .. استيقظت في العاشرة .. كان الكتاب ملقى على الأرض .. يبدو أنه انكفأ على وجهي وسقط .. لا يهم .. انتبهت فجأة .. وقتئذ كنت راكعاً .. أحسست بغيظ شديد : « سبحان ربي العظيم وبحمده .. سبحان ربي العظيم وبحمده .. » صاح المؤذن من خلف الإمام : « ربنا ولك الحمد .. » لاحظت حذائي فجأة .. كان موضوعاً بجانب العمود القائم أمامي .. تعجبت .. كيف حدث هذا .. يبدو أنني أفعل بعض أشيائي بحرص فطري يمارسه اللاوعي في أعماقي : « اللعنة على الحضارة .. » .. «عزيزي .. عليك اللعنة ـ إن شئت ، وإن شئت ـ السلام !! » .. كانت عبارته مشحونة بأحاسيس مثيرة : « لماذا يلعنني هذا الكلب .. » .. ومع ذلك لم أملك إلا أن أضحك .. كان يجلس قبالتي كاللعنة

كلما زارني ويقرأ عليّ شعراً طريفاً ، ويطلعني على أفكاره المجنونة ، فأضحك ملء المكان دون أن يضحك هو ومع ذلك أحبه : « سبحان ربي الأعلى وبحمده .. سبحان ربي الأعلى وبحمده » .. أحسست بصداع شديد ، وأنا أستقيم : « الله أكبر .. » .. واستوت الصفوف قائمة : « يبدو أنني أفعل بعض أشيائي بحرص فطري يمارسه اللاوعي في أعماقي !! » ... « غير المغضوب عليهم ولا الضالين .. » .. واندفعت أصوات المصلين كثيفة : « آمين.. ».. أراحني انسجامها ، وشعرت بطمأنينة تجتاح نفسي .. : «انهم ينتظرون أن أموت فوراً ليطوقوا أبواب الشركة في أول أسبوع والشركة تريدني أن أعيش أكثر ، لأدفع أكثر : اللعنة على الحضارة .. سأنهي التزامي مع الشركة .. أنا لا أفكر في الموت ـ على الأقل في الوقت الحاضر ـ فهناك أشياء كثيرة لا تزال تنتظرني ، أو أنا الذي انتظرها .. لا فرق : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً .. » : إن عمر الإنسان لا يكاد يسع مطامحه .. لماذا !؟ .. هم يريدونني أن أموت والشركة تريدني أن أعيش : «معادلة طريفة .. أيها السادة .. انني لا أفكر في الموت الآن .. سأنهي التزامي مع الشركة .. تلك هي الطريق إلى آدميتي .. فلي مشاعر وذكريات لا يمكن أن أسمح بإلغائها في مساومة رخيصة» : «مشاعرنا لا تخضع للمنطق ..» .. لا بد أن شيئاً ما ، كان قد حدث فعلاً .. تخيلتها وجهاً خارج الزحام وأنا أتذكر « وجهاً في الزحام » ..

لا بد أنها تبتسم الآن في الجانب الآخر .. ليكن ذلك .. إن كبرياءنا أحياناً تدير رؤوسنا بالنشوة ، ولكن على حساب جوانب أخرى أكثر لصوقاً بواقعنا وحتمية .. وربما أكثر شوقاً .. لماذا تصر على أن تبدو خارج الزحام .. ذلك لغز لم أفكر في حله بعد .. أحسست بكذبها رغم صوتها الغامض الذي لا تكاد نبراته تنم عن شيء .. في البداية كانت كمثل غموض السواحل الاستوائية : «فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا .. » .. لحظة صمت خاشعة اجتاحت خواطري فجأة .. : « الله أكبر .. » .. لتكن وجهاً خارج الزحام .. لا يهم .. لكن إلى أي مدى يمكن للإنسان أن ينفصل عن ذاته .. حينئذ سأفقد ثقتي في وجداني وخفقي .. لا أدري متى شاهدت ذلك الفيلم .. كان وجهاً في الزحام .. لقد غارت من الصور المعلقة .. ربما ليغرق هو في عينيها أكثر .. رنت إليه بعينين ضاحكتين .. هي .. هي .. نفس الضحكة .. نفس الشوق تؤججها ملامح استوائية .. قطعاً ، لقد كانت تبتسم في الجانب الآخر : لا أدري لماذا تحاول أن تبدو خارج الزحام .. دائماً خارج الزحام .. مهما يكن لا شيء أصبح يهم : « سبحان ربي العظيم وبحمده .. سبحان ربي العظيم وبحمده .. » .. فكرت في الموت .. كنت أظن أنني أستطيع أن أفكر فيه بصورة ودية للغاية .. أحسست كأن بيني وبين أفكاري سوء تفاهم .. ابتسمت وأنا أتأمل ما إذا كان يجيء الموت في لحظة صحو مطلقة بحيث يموت المرء واقفاً ، أم يجيء في لحظة غفلة .. بدا لي الأمر مختلطاً ..

ذابت الفروق بين الأشياء : « سبحان ربي الأعلى وبحمده .. سبحان ربي الأعلى وبحمده » عدت أسأل من جديد : « إلى أي مدى يمكن أن ينفصل الإنسان عن ذاته !! » : « الله أكبر » .. ارتاح صوت المؤذن هذه المرة في نغمة انتهت بنبرة خافتة .. وهمسات كثيرة هنا وهناك : « التحيات لله .. » .. وقتئذ كنت كمن عاد من رحلة طويلة .. مضت لحظة صمت خاشعة .. مارست خلالها خيبتي وعجزي في انفصالي عن الخارج !!